تأويل الذّاكرة المكانيّة المُتخيّلة عند غاستون باشلار

م.د. أحمد عويّز حسين
كليّة الآداب – جامعة الكوفة ٠٧٨٠٢٨٦٥٧٤٤
ahmed.awayiz@uokufa.edu.iq

الخلاصة بالعربيّة:

درسَ باشلار مجموعةً كبيرةً من صورِ الذاكرةِ التي ارتبطتْ بعددٍ كبيرٍ من الأماكن، وقد أولاها عناية كبيرةً في تأويلاتهِ وكانت نتيجة ذلك أن أفرد لها مؤلفات خاصّة، والملاحظ أن أغلبها جاءت مما سمّاها بأماكن الألفة "كالبيت وأجزائهِ "الأركان، القبو، العليّة وغيرها" أو ما يناظره أو يرمز إليه "كالعشّ، والقوقعةِ، والصندوقِ، والأدراجِ، والعُلبِ وغيرها" وقد حاولَ تأويلها بناءً على منحى ظاهراتيٍّ صرّحَ بهِ، وهذا البحث يهتمّ نظريّاً بالمقاربةِ الباشلاريةِ في تأويلِ صورِ الذاكرة للأماكن المتخيّلة وقد جاء في ثلاثةِ أقسامٍ رئيسةٍ: الأول اهتم بتأويل صورِ البيتِ بوصفهِ كوناً مستقلاً وتأويل رمزيّة نظامهِ المركزيّ، والثاني: خُصصَ لتأويلِ أمكنةِ البيتِ ورمزيّة نظاميها العموديّ والأفقيّ، والثالث: تناول تأويل الأشياء البيتيّة وغير البيتيّة ورمزيّتها. مع مدخلٍ يقفُ على الترابطِ بين الذاكرة والتذكّر وعلاقتهما في إنتاجِ الصورِ ظاهراتيّاً.

الكلمات المفتاحيّة:
الذاكرة المكانيّة، أماكن الألفة، كون البيت، ظاهراتيّة الخيال، الذّات الحالمة، مركزيّة الأصل الطفوليّ، الطفولة الكونيّة، كون الأمكنة غير البيتيّة، حلم اليقظة.

Interpretation of an imagined spatial memory according to Bachelard's thought

Dr. Ahmed Awayiz Hussein
ahmed.awayiz@uokufa.edu.iq

Abstract:

Bachelard study a group of memory images which belong to several of different places, He interests it by his interpretations, he specializes number from some his books to study it, these images appear as domesticity places like: house and its parts, cellar, upper room, and all things which were like them, and symbolize them, as nest, shell and other things. He interprets based on phenomenological ideas. This research interests Bachelard's approach about interpretation of memory images which it were imaginary. This research divides into three parts: the first interests interpretation of house as imaginary autonomic world, and interpretation of symbolism its central system. the second part: interests interpretation of house's places and symbolism of its two system "vertical and horizontal". The third part study household things and not household and its symbolism, with inlet in the beginning of research about relationship between memory and remembrance, and its relationship with production of images by phenomenological vision.

Key words;
The Spatial memory, Places of Familiarity, Cosmic home, Phenomenology of Imagination, The dreamy self, Central childish origin, Cosmic childhood, Non-home places, Daydream.

المقدمة:

تناولَ باشلار مجموعةً كبيرةً من صورِ الذاكرةِ التي ارتبطتْ بعددٍ كبيرٍ من الأماكن، وقد أولاها عناية كبيرةً في تأويلاتهِ وكانت نتيجة ذلك أن أفرد لها مؤلفات خاصّة، والملاحظ أن أغلبها جاءت مما سمّاها بأماكن الألفة "كالبيت وأجزائهِ "الأركان، القبو، العليّة وغيرها" أو ما يناظره أو يرمز إليه "كالعشّ، والقوقعةِ، والصندوقِ، والأدراجِ، والعُلبِ وغيرها" وقد حاولَ تأويلها بناءً على منحى ظاهراتيٍّ صرّحَ بهِ، وهذا البحث يهتمّ نظريّاً بالمقاربةِ الباشلاريةِ في تأويلِ صورِ الذاكرة للأماكن المتخيّلة وقد جاء في ثلاثةِ أقسامٍ رئيسةٍ: الأول اهتم بتأويل صورِ البيتِ بوصفهِ كوناً مستقلاً وتأويل رمزيّة نظامهِ المركزيّ،

والثاني: خُصصَ لتأويلِ أمكنةِ البيتِ ورمزيّة نظاميها العموديّ والأفقيّ، والثالث: تناول تأويل الأشياء البيتيّة وغير البيتيّة ورمزيّتها. مع مدخلٍ يقفُ على الترابطِ بين الذاكرةِ والتذكّر وعلاقتهما في إنتاجِ الصورِ ظاهراتيّاً.

مدخل/ الذاكرة والتذكّر والمقاربة الظاهراتيّة

تُعرّفُ الذاكرةُ Memory بأنها "كلُّ حفظٍ لماضي كائنٍ حيٍّ في حالةِ هذا الكائن الراهنة."[i]. ومع كونِ هذا التعريف يُقدّمُ لنا أهمَّ جزءٍ في حمولةِ مفهومِ الذاكرة وتحديداً ما يتعلّقُ بحفظِ ماضي الكائن الحي من الأفكارِ والمواقفِ والصورِ، بيد أن هذا التحديد نجدُهُ يُهملُ الفارقَ الجوهريّ بين الذاكرةِ الإنسانيّةِ الحيّةِ، وأية وسيلةِ حفظٍ غير إنسانيّةٍ أخرى، فثمّة شرطٌ غالباً ما يُشيرُ إليه الفلاسفةُ يتعلّقُ بنشاطِ الذاكرة، إذ ربطوا بين الذاكرةِ بوصفها مخزناً صامتاً للأفكارِ والتجارب الإنسانيّةِ، وبين الذاكرةِ الناطقةِ أو الحيّة ربطاً يوصلُها بنشاطِ العقلِ الإنساني والإفادة ممّا تحمله، عبر اصطلاحٍ آخر مهمٍّ جداً يتعلّقُ بالقدرةِ على استعادةِ لحظةٍ زمنيّةٍ انتهت تحملُ حدثاً أو صورةً شريطة أن تبقى هذهِ المعلومات قائمةً كُليّاً أو جزئيّاً لحين تثويرها عبر الاستعادةِ وهذا ما سُمّي "بالتذكّر" ومن دون هذا الأخير تبقى الذاكرةُ شبه ميّتةٍ أو صامتةٍ كحالِ غيرها من والوسائل غير الإنسانيّةِ التي لها القدرةُ على الحفظِ المجرّدِ لا غير، ومن هنا مثّلت الذاكرةُ بحثاً أصيلاً عند الفلاسفةِ المهتمّين في تحليلِ النشاطِ العقلي الإنساني، ولاسيّما الباحثين في نظريّةِ المعرفةِ والفهمِ والتأويلِ، وكانت مدارَ اهتمامٍ بينهم منذ سقراط وأفلاطون فقد ربطَ هذان الفيلسوفان بين الذاكرةِ والمعرفةِ ربطاً جوهريّاً ففي محاوراتِ أفلاطون وتحديداً في **محاورة مينون** يظهرُ كيف أن سقراط جعلَ العبدَ الذي حاوره يحلُّ المسألة بناءً على الذاكرةِ "معرفةٍ سابقة" التي هي عنده تُمثّلُ المعرفة التي نُسيت، ومن ثمّ تمّت استعادتُها من الماضي[ii]، على حين مضى أرسطو فاصلاً بينها وبين النشاطِ المتعلّقِ بالإفادةِ مما تحمله في رسالةٍ تحملُ عنوان "**الذاكرة والتذكّر**" فرى أن الذاكرةِ ترتبطُ بالانفعالِ النفسي عند استدعاءِ شيءٍ ما[iii]، أي ترتبطُ بإعادةِ إنتاجِ الشعورِ السابقِ، وتمثّلِ حالةٍ نفسيّةٍ منصرمةٍ، وبناءً على هذا المعنى قيل إنها "وظيفة نفسيّة قوامها معاودة إنتاجِ حالةِ وعي سابقةٍ مع هذهِ السمة التي يعترفُ بها الفاعلُ بصفتها هذهِ"[iv].

فالذاكرةُ عند أرسطو عمليّةُ الحفظِ غيباً عند الفاعلِ الحقيقي على حين يكونُ التذكّرُ مُمثّلاً بالمسافةِ الزمنيّةِ المجتازةِ بين الانطباعِ الأوّلِ، وبين الثاني حينما يمرُّ الزمنُ وهو ما يُسمّيه بالاستذكار أو التذكّر، ففي التذكّرِ ثمّة جهدٌ مبذولٌ للاستذكار بخلافِ الاستدعاء البحت[v]. وهذا الجهد يُبقي الذاكرة حيّةً ناطقةً، وبفضلِ هذا النشاط يُمكنُ أن تدخلَ في معادلةِ نظريّةِ المعرفةِ، وعندها لا تبقى مخزناً صامتاً. وبالتقدّمِ أكثر نجدُ هذا المبحث يأخذُ مكانةً كبيرةً من اهتمامِ الفلاسفةِ التجريبيين منذ القرنِ السابع عشر فما بعده، فقد بحثت الفلسفةُ التجريبيّةُ المعرفةَ انطلاقاً من الذاكرةِ التي رأت فيها مصدراً مُهمّاً من مصادر المعرفة[vi]، وبناءً على هذا انتهت إلى سؤالٍ مفادُهُ كيف نثقُ بالذاكرةِ بوصفها مصدراً للمعرفةِ؟ ومن هنا صار لزاماً عندهم ربط الذاكرةِ بالوعي فجاء اهتمامهم بما سمّوه "بالذاكرةِ الواعية" وهي تتصلُ بالفعلِ الواعي، والقدرةِ على تملّكِ تجربةٍ ماضيةٍ بالاستعادةِ، وتحصيل معرفةٍ بها[vii]. فقد أضافَ التجريبيون إلى مفهومِ أرسطو للذاكرةِ والتذكّرِ شرطاً آخر حينما اشترطوا وجودَ الوعي، لأن التذكّر المحض يُمكنُ أن لا يُقدّمُ المعرفة الموثوقة، فقد تكونُ المعلوماتُ المقدّمة تنتمي إلى متخيّلاتٍ وهميّةٍ أو هلوساتٍ ذهنيّةٍ، وبما أنهم عدّوها مصدراً من مصادر المعرفةِ فصار لزاماً أن يكونَ النشاطُ المرتبطُ بالذاكرةِ نشاطاً واعياً تحصيلاً للمعرفةِ الموثوقةِ التي يتحرّونها. ومن هنا تدخل الذاكرة ركناً مهمّاً في نظريّةِ التأويلِ التي تقومُ على تحليلِ صورِ التجاربِ الإنسانيّة الماضية، ونشاط الخيالِ الإنساني في تكوينها، وتحقيقِ عوالمه المتخيّلة، وهو الجزءُ الذي قامت عليه نظريةِ باشلار التأويليّة لأماكن الألفة الماضية كما سنُبين بالتفصيل في هذا البحث.

ومن مفهوم الذاكرة الواعية الذي ظهرتْ ملامحه لدى التجريبيين كما سبق يُحاولُ باشلار تحقيق ربطِ بين هذا المفهوم وبين مفهوم "الوعي القصدي" في المنحى الظاهراتيّ بعد أن صرّح باشلار بالتزامهِ في تأويل الصورِ المتخيّلةِ، ولاسيّما الصور الحُلميّة، فقد انطلق الظاهراتيون في تفسيرهم للظواهر والأشياء وتحصل المعرفة بها من قاعدةِ دمجِ وعي الذاتِ الراصدة بالموضوعِ الخارجيّ المرصودِ[viii] في ضوءِ ما سمّوه "بالوعي القصدي"[ix] الذي يتّجه فيه عقلُ المفسّر نحو ظاهرةٍ معيّنةٍ في واقعٍ خارجيٍّ قاصداً تحقيق معرفة بها، ومن تحقيقِ الربطِ بين وعي الذاتِ الراصدة للظاهرة أو ما تحمله ذاتُ الحالمِ من صورٍ

لذلك الشيء المرصودِ مع تمثّله في الواقعِ الخارجيّ، يحصلُ الاختزالُ الظاهراتيّ، لذلك الشيء، فالشيءُ يغدو من مدركاتِ وعينا فهو موجودٌ في وعينا لتحققِ وجودهِ المشخّصِ الخارجيّ المحسوس، ونحن نُدركه موجوداً مشخّصاً من وجودِ صورتهِ في الذهنِ، وباجتماعِ البعدين نحصلُ على صورةٍ متخيَّلة، ومع قيامِ الصورةِ المتخيَّلة على مرجعياتٍ سابقةٍ أو استنادها إلى لحظةٍ قبليّةٍ مكوِّنة تنتمي إلى الماضي، فإن الرصد الباشلاري نجده يفترضُ لحظتين الأولى اللحظة الماضية التي انبثقت منها الصورة، والثانية اللحظة المتخيّلة الآنية، ومن هذا الربط أو من هذهِ القاعدة المستندة إلى التصوّرِ الظاهراتي يندفع في تحليلِ صورِ الذاكرةِ المتخيَّلة بناءً على هذا المنطق، بحثَ باشلار صورِ أماكن الألفة البيتيّة وأركانه وأماكن الألفة غير البيتيّة وهو ما اختصّ هذا البحث بتحليلهِ تباعاً.

المبحث الأول

١– مركزيّة البيتِ ولحظة الانبثاقِ الأولى "رمزيّة النظام المركزي"

يُقدّمُ باشلار البيتَ بوصفهِ كوناً متخيّلاً مركزيّاً، بين نصٍّ مُنتجٍ يُمارسُ فعلَ الإثارةِ، وبين تأمّلاتِ اليقظةِ التي تربطهُ بذاكرةِ ذلك المتخيّل. يقول باشلار: "البيت إنه ركننا في العالم. إنه، كما قيل مراراً، كوننا الأول، كونٌ حقيقيٌ بكلِّ ما للكلمةِ من معنى. وإذا طالعنا بألفةٍ فيبدو أبأس بيتٍ جميلاً"[(x)].

وهكذا من البيتِ تكونُ البدايةُ لكلِّ إنسانٍ يندفعُ إلى العالم الأكبر، في تلك البداية يولدُ الإنسانُ، ويولدُ معه الوعي، البداية التي تتحوّل إلى الكونِ الحقيقي الأول بكلِّ أركانهِ وزواياه وحمولاتهِ الماديّة والمعنوية، فتكون لحظةُ الولادةِ هي لحظةُ الشعورِ بوجودِ الكونِ المتمددُ على بساطِ أوّله زوايانا الضيّقة، وآخره أن لا حدود هندسيّة له حتى مع وجودِ القبو والعليّة وغيرها التي هي أماكنٌ بيتيّةٌ ربّما تُمثّلُ حدوده الهندسيّة، فتلك الأمكنة ما هي إلا عوالم جديدة لا متناهية لهذا الكون، صورٌ وتجلياتٌ رحبة تُطلُّ على وعي الإنسان من إحدى نوافذ هذا الكون الكبير، هنا البداية التي هي بدايةُ عَيشٍ، وذكرى وحلم وخيال، بداية يولدها الحاضر، وحاضر لا ينقطع عن المستقبلِ، ومستقبل كلّ شيء فيه كونٌ مفتوحٌ يمنحُ العالم جمالاً حتى وإن غدا بائساً في أعين ذلك العالم، لأن مقاييس الجمال ليست من العالم، وإنما من ألفةِ ذلك العالم، فكلّما حملَ ذلك الكون البائس ألفةً كان أجمل كونٍ خبره ذلك الإنسان، فهذا هو المقياسُ لدى باشلار؛ إنه مقياسُ الألفةِ الذي يمنحنا وجوداً في هذا العالم. ويمنحُ العالمَ وجوداً فينا.

ففي قلبِ هذهِ البداية نعيشُ الألفة التي تجعلُ لهذهِ البداية معنى وأنطولوجيا ذاتيّة لذلك المولود، وفي الوقتِ نفسهِ فإن صورة الألفة والواقعيّة تبقى رهنَ ذلك الخيال الذي يُسبغُ عليها قيماً إضافيّة وجديدة. يقول باشلار: "البيت يمدُّنا بصورٍ متفرقةٍ، وفي الوقتِ ذاتهِ يمنحنا مجموعةً متكاملةً من الصورِ. وفي حالتين... إن الخيالَ يمنحُ إضافات لقيمِ الواقعِ. إن نوعاً من الانجذاب نحو الصور يركّزها – أي القيم – في البيت"[(xi)]. وهكذا فالصورُ تجذبُ ذلك الإنسانَ نحو هذا الكون وبالألفةِ يدخله بأوسعِ أبوابهِ. ولكنّه بخيالهِ يُسبغُ عليه قيماً جديدةً، مادامت الأشياء من اختزالاتِ وعينا في "جدلٍ بين الذاتِ والموضوعِ" فتتحقق المعرفة بهذا العالم "الكون"، جدل ينتهي بإثبات أنطولوجيا كونٍ جديدٍ. لأنه يُسهمُ في إعادةِ إنتاجهِ، ويشتركُ في خلقهِ مرةً أخرى، ويُضيفُ عليه قيماً جديدةً. ومع كلِّ هذا التوجّه الظاهراتي يبقى الحالم مشدوداً إلى تلك البداية أو اللحظة الأولى للإدراكِ "للوعي" لحظة الانبثاق لهذا الكون، فهو لا ينصرفُ إلى أبعادٍ هندسيّةٍ يُفتشُ فيها. يقول باشلار واصفاً عمل الظاهراتي: "ينصرف إلى البحثِ عن البذرةِ الجوهريّة والمؤكدة والمباشرة لما يوفّره هذا النوع أو ذلك من هناءةٍ. إن أولَ مهمّةٍ للظاهراتي في كلِّ بيتٍ أن يجدَ القوقعة الأصليّة" [(xii)].

فباشلار هنا يلتزمُ التصوّر الظاهراتي الذي اهتمّ بتحديدِ بنيةِ الظواهرِ phenomena[(xiii)] وشروطها العامة أي ما يُسمّى بمشكلةِ الظهورِ وانبثاق الأشياءِ في لحظةِ الارتباطِ بالوعي، واتصاله بها، عبر رصدِ ماهيتها، في حالِ التكوّن[(xiv)]، وهي اللحظة الأهم لدى الذات الإنسانية التي تتحرّى التواصل مع العالم. بيد أن البداية لدى باشلار لا تكمن في عمقٍ هندسيٍّ أو بعدٍ ماديٍّ بقدرِ ما تكمنُ في تلك الألفة. وذلك الهناء والطمأنينة الوجوديّة التي وجدتها ذات الإنسان في ذلك المكان أوّل مرةٍ،

إذن لا قيمة للمكانِ بوصفهِ بعداً هندسيّاً، ولكن ذلك البعد الهندسي حينما يتحوّل إلى مكانِ ولادةِ الهناء. البداية والطمأنينة، والقوقعة الذاتيّة تحلُّ القيمةُ الوجوديّةُ بكلِّ معانيها. وهنا يغدو المكان الضئيل كوناً مفتوحاً وعالماً لا متناهياً، ويغدو بؤسه المادي أجمل عوالمِ الألفة المتخيّلة، وتتجلّى مركزيته في تجربةِ الحالم.

إن هذا الكون الذي تلمسُ فيه الذاتُ الألفة لا يبقى كوناً مألوفاً ومكان هناءٍ فقط، إنما ينطلقُ تأثيره في تلك الذات حينما يُسهم في إثبات أناها، فإذا كان عددٌ من الفلاسفةِ التجريديين الذين يحملون نزعةَ وعي بالعالم، تكشفُ الكون عبر جدلية "الأنا" وما ليس "بأنا" فيكتشفون الأفق البعيد عبر لعبة الأنا "الذات"، وما ليس بأنا "الموضوع الخارجيّ المدرك" فإنهم يبدأون من الأفقِ البعيد قبل وصولهم إلى مكانِ الهناءِ والراحةِ "البيت"، على حين إن التوجّه الظاهراتي يُقدّم لنا مكانة الكون الأليف "البيت" اللا أنا وأثره في حمايةِ الأنا، وإثباتها أوّلاً، وبهِ يُكتشفُ العالم البعيد، لذا سنجد أن كلَّ الأمكنة المأهولة التي تحملُ ضمناً جوهر فكرةِ البيتِ، وسكينتهِ، ستتحوّلُ إلى كونٍ يجدُ فيه الإنسان كلَّ الهناء والطمأنينة، فالبيتُ الأولي الذي ألفه الإنسان يتمتّعُ بالمركزيّةِ، والسيادة، ويُمثّلُ النواة الأولى لكلِّ مشاعر الألفة التي تحملها الأمكنة الأخرى فيما بعد، وكلّ هذا الشعور هو من بناءِ نشاطِ الخيالِ، لأن الصورةِ الحسيّة لذلك الكون قطعاً تكونُ قد غادرت، ولكنّها حلّت في رمزٍ جديدٍ يُثورُ الخيال مرّةً أخرى فعيش تجربة البيتِ الأول بكلِّ وأقعيتهِ، وهو جزءٌ من أحلامِ اليقظةِ، فالبيتُ الجديدُ يغدو محطَّ نزولِ قوافل الذكريات القديمة، فهو يفتحُ نافذةً على تاريخٍ سحيقٍ يربطُ فيه الخيالَ بالذاكرةِ، وكلاهما يُعمّق الآخر، فالذات تنتقلُ إلى أرضِ الطفولةِ "**ذاكرة المتخيّل الطفولي**" الذاكرة الثابتة المتوقّفة هناك، فتعيش الذات تثبيتات السعادة التي مرّت قبل زمنٍ طويلٍ في مكانٍ محددٍ، ومن هنا يغدو العمق الشعريّ في نصٍّ شعريٍّ أكثر من الذكريات، فالبيتُ يحمي أحلامَ اليقظةِ، ويمضي ذلك الحلُم مكتفياً بذاتهِ، يستمدُّ متعةً مباشرةً من وجودهِ، والنتيجة إن حلم اليقظة القديم يُعيدُ خلقَ ذاتهِ في حلمِ يقظةٍ جديدٍ، ولأن هذا مبنيٌّ على الاستعادة لذلك الأصل فإن فكرة كينونةِ البيت أو البيت الكون تبقى ملازمةً للإنسانِ على مدى حياتهِ[(xv)] كما يرى باشلار.

ومن المؤكد فإن الاتصال بذلك المكان بدا أكثر قوّةً مادام الإنسان قد عاش فيه وتلمّسه بحواسهِ، وكما تقدّم عند الفلاسفة الذين بحثوا في الذاكرةِ فما يُعاشُ بالحسِّ يكون أقوى من مما يُعاش بالخيالِ، لأنها كما يقول هوبز وجون لوك نوعٌ من الإدراكِ الحسّي[(xvi)]، فضلاً عن أن ما يُنقل في الذاكرةِ يكون أكثرَ أمانة مما يُنقل بغيرها[(xvii)]. وبناءً على كلِّ ما تقدّم يُمكن أن نفصل بين شيئين مهمّين في مفهومِ "الذاكرة" بين "صور الأصل المنقولة من الذاكرةِ الطفوليّة الأولى البعيدة "الماضية، والكون الأول للألفة ولحظة الانبثاق لذلك الأصل، وبين الصورة المتخيّلة القائمة عليها، وتجتهد لمماثلتها لتعيش لحظتها المنقضية، عبر حلمِ يقظةٍ وصورٍ خُلقت في الحاضرِ، هنا يتحققُ التواصل بين عوالم الزمن، لأن الماضي يُستعادُ ويتحوّلُ إلى حاضرٍ، والحاضر هو نفسه الماضي، فثمّة اختزالٌ للمسافةِ الزمنيةِ Temporal Distance الفاصلة بين ما كان وما يكون[(xviii)]، فالحاضرُ هو في الأصلِ حاضر متصل بثلاثةِ لحظاتٍ ماضية وآنية ومستقبلة، ومحقق لتواصل العوالم، وهذه الفكرة لحاضرةٍ ثلاثيّ الأبعادِ نجدها عند دلتاي في مفهومه للزمان[(xix)] استعارها من أوغسطين[(xx)]، ولعلّ باشلار استعاره من دلتاي، لأنه أمين لأصلهِ ومنظومته المعرفيّة.

فالماضي "الذكريات" تحلُّ في حاضرنا وهذا الحاضر يُسهمُ في إيجادِ كينونةٍ جديدةٍ عبر عمليّةِ خلقٍ أخرى تلغى الفواصل الزمنيّة، لأنه يحملُ في ذواتِنا لحظةَ انبثاقه الأولى والمكان الأول للألفة، بذور تنتقلُ عبر فضاءاتِ الأزمانِ من دونِ فناءٍ، فترسم لنا الكونَ الهنيء في الحاضرِ، وتعدنا بهِ في المستقبلِ حتى وإن غصَّ ذلك الحاضر بالتعاساتِ، لأن تلك التعاسات تدفعنا دائماً إلى نسيانها والقطيعة معها، على حين تحلُّ بذرةُ السعادةِ من الذكرى البعيدة في أي حلمِ يقظةٍ يوقفُ الإنسان ليُعيده إلى ربيعِ سعادتهِ المنقضي فيُعلن ولادته من جديدٍ.

ومع كلِّ هذا المتقدّم يرى باشلار أن هذا لا يعني ربط الذاكرة بزمنٍ معينٍ بوصفها سيرةً ماضيةً، فذلك هو شأنُ المؤرّخِ، الذي ينقلُ الوقائع الماضية إلى الآخرين، بل إن الكتابة التأويليّة التي يتوخّاها باشلار، ويهدفُ إليها هي أكثر عمقاً من كتابةِ السيرِ، لأنها تدفعُ في بحثهِ إلى تحديدِ المراكز المصيريّة وتخليصها من روابطِها العابرة، ونزعها من التاريخِ المرهون بواقعيّةٍ زائلةٍ[(xxi)].

وهكذا باستمرار تبقى لحظة الانبثاق الأولى لذلك البيت محفورةً في الذاتِ والذاكرةِ تحتلّ المركزيّة الدائمة، يقول باشلار: "فالبيت الذي ولدنا فيه محفورٌ، بشكلٍ ماديٍّ، في داخلِنا إنه يصبح مجموعة من العادات العضويّة، بعد عشرين عاماً ورغم السلالم الكثيرة الأخرى التي سرنا فوقها، فإننا نستعيدُ استجابتنا (للسلم الأول)... إن الوجود الكلّي للبيتِ سوف ينفتحُ بأمانةٍ لوجودنا. سوف ندفعُ البابَ الذي يصدرُ صريراً بنفسِ الحركةِ، كما نستطيعُ أن نجدَ طريقنا في الظلامِ إلى حجرِ السطحِ البعيدة. إن ملمس أصغر ترباس يظلُّ باقياً في أيدينا... نندهش حين نعود إلى البيتِ القديم بعد تجوالِ سنينٍ عديدةٍ، أن نجدَ أدقَ الإيماءات وأقدمها تعود للحياة... فإن البيت الذي ولدنا فيه قد حُفر في داخلِنا المجموعة الهرميّة لكلِّ وظائف السكنى... كلّ البيوت الأخرى هي تنويعات على نفسِ اللحن"(xxii).

من هنا تبقى مركزية ذلك الكون القديم "البيت" حاضرة في كلِّ البيوت الأخرى، تبقى لحظة الانبثاق هي لحظة ولادة شعور دائم في الذاتِ حفرت حفراً، ومع كلِّ التنقّلات والأمكنة الجديدة، فما هي إلا تجلّيات أو أمكنة يُلبسها الوعي ذلك الشعور القديم. فالبيت كما يقول باشلار: "تتخيل البيت كوجودٍ مكثفٍ. إنه يتوجّه إلى وعينا بالمركزية"(xxiii).

والملاحظ في هذا القول الأخير أن باشلار يُثبتُ تأثير البيت في الوعي أي سلطة الموضوع المدرَك على الذات المدرِكة. فكأنّ رؤيته تُبنى على إثباتِ مركزيّةِ "الموضوع" بإزاءِ الذاتِ فهي تصطنعُ هذهِ المركزيّة، لا في لحظةِ اللقاء الأوّل "الموضوع مع الذاتِ"، ولكن في لحظاتٍ تابعةٍ فتكون اللحظة الأولى التي هي أساسٌ انطلقت أو وجدت من التقاءِ الذاتِ بالموضوعِ في صيغةٍ جدليّة فنتجت عنها تلك، ولكنه يُبقيها على مركزيّةٍ حاكمةٍ على اللحظاتِ الأخرى، أي أن رصد الوعي للأمكنة الأخرى يبقى مرتهناً بمركزيّةِ الوعي القصدي "لحظة الانبثاق الأصلية" لذا يضعُف نشاطَ الوعي الخلّاق. سواء أكان باشلار واعياً بهذهِ النتيجة أم لا. ولعلّ باشلار كان مدفوعاً إلى ذلك، لأنه متجه إلى صياغةِ نظريّة ظاهراتيّة في الخيالِ الإنساني. وهذا فيه محاذير تدفعه إلى إعادةِ صياغةِ بعضِ المفاهيم أو الخطوات في التصوّرِ الظاهراتي تسالماً، مع منطقِ الخيالِ والصور الشعريّة التي تُبنى على الاحتمالِ، ولاسيّما مع موضوعِ "ذاكرة المتخيّل" أو ربط الذاكرة بالخيالِ. وهذا ما يقومُ على مفهومِ الاستعادة والاستعادة معناها أن ثمة شعوراً يتّصفُ بالمركزيّة لابدّ من استعادتهِ، وهذا ما يجعلُ من منطق نظرية باشلار في هذا الجزء تقتربُ من فهمٍ سمّيناهم في كتابِنا **العقل التأويلي الغربي** "أصحاب تأويل المماثلة"(xxiv) إلى حدٍّ ما، مع التأكيد على إدراكِ الفارقِ الجوهري بين التصوّرين، بل ولعلّي أستطيعُ القول إنه أستند إلى قاعدةٍ معرفيّةٍ ظاهراتيةٍ في تأويلاتهِ، ولكنّه أقامها على فكرةِ المماثلةِ حينما ربطها بالأصل المستعاد بقصدِ المماثلة وعيش التجربة من جديد.

٢ – الذاكرة ومركزيّة الأصلِ الطفوليّ في الذاتِ الإنسانيّةِ الحالمةِ.

يرى باشلار أن شعورَ الألفةِ الأولي القديم مهما كان من تباعدٍ في الزمنِ يبقى حيّاً فينا، لأنه شعورُ اللحظةِ الأولى، والوعي الأوّلي، وهو شعورُ الطفولةِ التي تبقى حيّةً فينا ونافعة شاعريّاً بداخلِنا بفضلِ أحلامِ اليقظةِ لا بفضلِ الواقعِ، إنها طفولةٌ دائمةٌ التي بلا شكٍّ لا يتحددُ وجودُها بموضوعيّةِ التاريخِ النفسيّ أو الجغرافي، لأنها أكبر من واقعِها الموضوعي كما يرى باشلار(xxv).

إن لحظة الوعي الأولى، لحظة الولادة، تمثّلُ ركنا أساسياً في نظريّةِ التأويلِ الباشلاريّة التي تستهدفُ "الذاكرة المتخيّلة" فالكونِ الطفولي، الذي عاشه الإنسان في بيته الأول، هو ما يُمثّل لحظة ولادةِ الذكرياتِ الحاملةِ للألفةِ والهناءِ، وهي تبقى حاضرةً معنا نحملها حتى بعد انقضاءِ السنين، في مراحلَ الحياةِ المختلفة "الصبا، الشباب، الكهولة" يُصرّحُ باشلار بأن رؤيته التي يُدافعُ عنها في تلك البداية المهمّة للإنسانِ مبنيّةٌ على "إعادة تخيّل كلّ طفولتنا... والاعتراف بديمومةِ نواةِ طفولةٍ في الروحِ الإنسانيّةِ، ثابتة ولكن دوماً حيّة، خارج التاريخ مخبّأة على الآخرين... هذهِ الطفولة التي ليس لها كائن حقيقي إلا... في لحظاتِ وجودِها الشاعري"(xxvi). بناءً على هذهِ الرؤية يرى باشلار أن تأويلها في نصوصِ الشعراءِ ظاهراتيّاً ينطلقُ من أرضيّةٍ مشتركةٍ بين منتجِ النصِّ الشعريّ الذي يحملُ تلك النواة الدائمة، وبين متلقي نصّهِ الشعري الذي هو كذلك قد مرّ بتجربةٍ سابقةٍ

أولى للشعورِ بالطفولةِ، وبقيت حاضرةً عبر ذاكرةٍ قديمةٍ، ولكنها متخيّلة في الحاضرِ، وهنا يأتي باشلار بشواهدَ شعريّة فينقل عن أحدِ الشعراء قولاً:

كلام مشتعل. سوف أقولُ ماذا كانت طفولتي

كنا نُخرجُ القمرَ الأحمرَ من مخبئهِ في أعماقِ الغابات

ويمضي معلّقاً بقولهِ: لعلَّ ثمّة من يسخرُ في هذا المقطع من طفولةٍ طاغيةٍ حينما يسمعُ أن أباً كان يُنزلُ القمرَ من عشّهِ كالعصفورِ في الغابةِ في سبيلِ حبِّ ولدهِ الصغير، ولكن الشاعر لا يتراجعُ عن هذا القول فهو يعي أنهُ سلوكٌ طفوليٌّ، وهذهِ الصورة إنما رسمها طفلٌ وخيالٌ طفوليٌّ، أو يُخبرنا الشاعر بذلك، إنما هي مظاهرُ طفولةٍ دائمةٍ، فهي صورةُ الوحدةِ واستمرار التأمّلات الطفوليّة بعد سنِّ الرشدِ، فهي فينا في قعرِ الذاكرةِ، فهذا هو الواقعُ نعيشُه في إمكاناتهِ، فنجعل من عوالمهِ ماثلةً أمامنا "أنطولوجيا" ومن هذا يحصلُ التواصلُ والاتصالُ بين شاعرِ الطفولةِ، وقارئ نصّهِ، بوساطةِ الطفولةِ التي تدوم فينا[xxvii].

فباشلار يبني التواصلَ المتحقق بين الذاتين المؤلّف الحاضر بنصّهِ وتجربتهِ في معنى النص، والقارئ الحامل لتجربةٍ سابقةٍ، على وجودِ الأصلِ المشتركِ بين الاثنين، وهو حضورُ الشعورِ الطفوليّ في الذاتين حضوراً دائماً حتى بعد تقادمِ الزمنِ، فتشابه التجربتين ولو في حيّز الإمكان هو الذي يُحققُ الفهمَ وتمثّلَ التجربة حاضرةً، وهو الذي يوجد إمكان استعادة شعورَ عيشها في عالمٍ مُتخيّلٍ بناءً على ما حملته الذاكرة، ومن هذا يظهرُ كأنهُ في رؤيتهِ يستعينُ بنظريةِ فيلسوفِ التأويلِ الألماني دلتاي التي أقامها على قاعدةِ الاستبطان المشتركة، أو ما اصطلح عليه بـ"العقل الموضوعي"، وخلاصته تُمثّل ما استقرّ في الذاكرةِ الجمعيّةِ من تجارب، فغدت توجّه الأفرادَ في فهمِ الأشياءِ بوصفهِ مشتركاً اجتمع في الذواتِ الإنسانيّةِ في زمانٍ ومكانٍ معينين، وعبر هذا الأصل المشترك بين التجارب المحمولة في نصوصٍ يتحققُ الفهم، لأن القرّاء يستبطنون شعوراً مشتركاً محمولاً عبر الذاكرةِ مع ذواتٍ أُخرى منها الذوات المبدعة لنصوصٍ شعريّةٍ، ويصلُ دلتاي في رؤيتهِ إلى ما سمّاه "إعادة اكتشاف الأنا في الأنت"، لأن القارئ يُعيد اكتشاف أناه في الآخر[xxviii]، وتأويل التجربةِ الإنسانيّةِ الماضيةِ عند باشلار قائمٌ على الأصلِ المشتركِ بين التجارب الإنسانيّة، فلمّا كان التأويلُ قائماً على لحظةِ الانبثاقِ الأولى في التجربةِ، وأن هذهِ اللحظة تأتي ممثّلةً بالأصلِ الطفولي في كينونةِ الإنسان الذي عاشها في لحظاتِ ألفةٍ للمكانِ الأولي، والأشياء المحسوسة بكلِّ هناءٍ، فإن تأويلَ التجارب اللاحقة يقومُ على قاعدةٍ واحدةٍ مشتركةٍ، تربطُ بين منتجِ النصِّ الذي عاشَ تجربةً ماضيةً أفرغها في نصّهِ، وبين قارئ النصّ الذي أخذته الصورُ إلى بدايتهِ الأولى ليعيش لحظةَ انبثاقِ تجربتهِ المشابه لتجربةِ الشاعر، ومن هنا يعيشُ القارئ متخيّلَ عالمٍ واقعيٍّ، يُعيدُ له إنتاج ذاتهِ القديمةِ، أو، بالأحرى يُعيدُ له إنتاج ما بقي محفوظاً في الذاكرةِ من كينونتهِ الجوهريّةِ الأولى "الأصل الطفولي".

مع التأكيدِ على أن رؤية باشلار تختلفُ عن رؤيةِ دلتاي في أن الثانية قائمةٌ على المماثلةِ التي تتحرّى الموضوعيّة المطلقة بين التجربتين، لأن خيارها يقصدُ مماثلةَ التجربةِ السابقةِ للوصولِ إلى القصدِ الذي أودعه المؤلّفُ في نصّهِ عبر المماثلةِ الأمينةِ، على حين تأتي رؤية باشلار مبنيّةً على إعادةِ الخلقِ، وبناءِ متخيّلِ صورةٍ تستندُ إلى الأصلِ المحمولِ من الذاكرةِ بيد أنها لا تشترطُ الموضوعيّةُ، لأن الهدفَ من إنتاجِ متخيّلِ الصورةِ الجديدةِ الحاضرة لا يشترطُ تقديمَ معرفةٍ موضوعيّةٍ، فمجال باشلار يبحثُ في ملكةِ الخيالِ. أو الذاكرة حينما تُعرّف بأنها ملكةُ تركيبِ الخَيلات في لوحاتٍ أو في متوالياتٍ، تُحاكي وقائع طبيعية وظواهرها، لكنّها لا تُمثّلُ شيئاً مما هو واقعيّ أو وجوديّ أو تُمثل نسخاً مطابقاً، لأنها تهتمُ بالأحلام والأعمال الفنيّة وغيرها، في حيّز من اللا ماديات، ويُقال بهذا المعنى عن الذاكرةِ بأنها خيال خلّاق كما ينقلُ لالاند في موسوعتهِ[xxix].

فباشلار يرى أن الطفولة الجديدة توقَظُ من قراءةِ شعرِ الشعراء من صورةِ شاعرٍ، فالشاعرُ يجعلُ الذاتَ تتصلُ بعالم لم ينتهِ بعد[xxx]، عالم متواصل بين لحظةِ البدايةِ، واللحظات الآنيّة الحالمة.

بيد أن هذهِ الاستعادة بين ذاكرةٍ ماضيةٍ، وبين متخيّلٍ حاضرٍ في رؤيةِ باشلار تجعلُ من لحظةِ الطفولةِ الأولى أو ذلك الشعور لانبثاقِ الوعي تتعالى على الزمانِ، فالوعي هنا يخترقُ الأزمان ليصل إلى الحاضرِ، وما يلبثُ أن يتجاوزه إلى

المستقبلِ، وتبقى الديمومة قائمة. يقول باشلار: "إن كائنَ التأمّلاتِ الشاردةِ يجتازُ دون أن يشيبَ كلَّ أزمنةِ الأنسانِ، من الطفولةِ حتى الشيخوخة... ها نحن نعودُ إلى ماضٍ بعيدٍ. إننا نحلمُ متذكرين. إننا نتذكّرُ حالمين"(xxxi).

فهذا الحلم هو تجربةٌ شعوريّةٌ مكتملةٌ تُعيدُ له إحياءَ ذاتهِ الطفوليّةِ حتى بعد أن تصرّمت، وغشيتها الشيخوخة، لأنها اللحظةُ الأولى للشعورِ بالحياةِ، فالحالمُ يتمنّاها في شيخوختهِ التي تحلُّ بلحظاتِها الهادمة لكلِّ رغبةٍ في العيشِ والحياةِ، فهي لحظةُ رعبٍ للذاتِ الإنسانيّةِ، لأنها لحظةٌ تتحققُ فيها النهايةُ والموتُ على حين تحققُ لحظةُ الطفولةِ له الحياةَ والولادة من جديد، ومع استحالةِ العودةِ إليها في العالمِ الواقعيّ، يندفعُ الإنسانُ الحالم إليها يائساً ليستعيدها تجربةً شعوريّةً في ذاكرةٍ متخيّلةٍ يُسمّيها باشلار بالحقائق الخياليّة طلباً للذّةِ تلك البداية التي قدّمت له الألفة والهناء والسعادة. عبر قراءتِها في نصوصٍ شعريّةٍ تنقله إلى عالمهِ الأوّلي.

٣ – الذاكرة ومتخيّل صور الطفولة الكونيّة والقبليّة الكينونيّة

يُحاول باشلار أن يسوّغ المركزيّة الطاغية للطفولةِ التي أشارَ إليها وفُتنَ بها بقولهِ "لماذا تتسمُ التأمّلات التي تحوّلنا نحو طفولتِنا بهذهِ الجاذبيّةِ، وبهذهِ القيمة الروحيّة، إن سببَ هذهِ القيمة التي تقاومُ تجارب الحياةِ هو أن الطفولة تبقى فينا مبدأ حياةٍ عميقة، حياة تتفقُ دوماً مع إمكانيات البدءِ من جديدٍ، كلّ ما يبدأ فينا في جوٍّ من نقاوةِ البدءِ هو جنونُ الحياةِ. والأنموذج المثالي الأكبر للحياةِ البادئةِ"(xxxii).

إن هذا الربط بين ذاكرةٍ ماضٍ، ومتخيّلٍ حاضرٍ عبر صورةٍ شعريّةٍ، وهذا الاختراق والتجاوز للزمنِ وإثبات ديمومةِ الشعورِ الطفولي فينا يوصلُ باشلار إلى الاعترافِ بما سمّاه "الطفولة الكونيّة في مملكةِ القيم"(xxxiii).

فثبوتُ الشعورُ الطفولي، واختراق الزمن والاتصال بين الذوات بين شاعرٍ أنتج نصّاً يحملُ صورةً، وبين متلقٍ قارئ عبر شعورِ الطفولةِ الأصيل في كلا الذاتين يجعلُ من الطفولةِ طفولةً كونيّةً، وباشلار يسعى إلى تأكيدِ هذا التصوّر، لذا نجده يُقدّمُ ما يُمكن أن نسمّيه "بإعادة اكتشاف الأنا الطفوليّة في الأنت أو فينا" – أي إعادة اكتشاف الأنا الطفوليّة للحالمِ في الآخر. فهي صفةٌ مشتركةٌ بين الاثنين، ومنها يحصلُ التواصلُ بينهما، حتى وإن تباعد الزمن، وهي صياغةٌ ظهرت فيها الاستعارة الدلتائيّة كما سبق واتضح.

ويقرر باشلار بأن ذكريات تلك الوحدة الكونيّة تقومُ على نواةِ الطفولةِ في مركزِ الأنا الإنسانيّة، وهنا يتّصلُ المتخيّلُ والذاكرةِ بأقربِ ما يكونُ. فكينونةُ الطفولةِ تربطُ الواقعَ البعيد بالخيالِ، فتعيشُ بتخيّلٍ شاملٍ صورَ الحقيقةِ الماضيةِ، فتغدو عندها الصورُ كونيّةً أيضاً، تنفعلُ بعمقٍ في كينونةِ الطفلِ، بمنأى عن كينونتهِ للآخرين، وتلِدُ بوحيٍّ من العالمِ كينونةً للعالمِ، وهي كينونةُ الطفولةِ الكونيّةِ، فالناسُ يمضونُ بيد أن الكونَ الأولي يبقى لا يُمحى، هو دوماً كونٌ أوليٌّ، لا تحجبهُ المناظر على مدى الحياةِ كلّها، فتبقى كونيّة طفولتِنا فينا. ما تلبثُ أن تظهرَ من جديدٍ في تأمّلاتِنا الشاردة في عزلتِنا، إن تأمّلاتنا هي من نشاطاتِ ما بعد النسيانِ، فثمة "القبليّة الكينونيّة" التي ضاعت في الزمنِ البعيدِ(xxxiv).

إذن هنا يحاولُ باشلار إثبات القبليّة الكينونيّة، ومنها يُمكن أن تتواصلَ الذواتُ، وتتوالدُ فتوجد الكينونات، ويحلّ الفهم، فهي تلك القاعدة الدائمة التي تحملُ الذاتَ بين جنباتِها، هي البدايةُ التي كوّنت تلك الذات، ورسمت الولادةَ الأولى، وهي اللحظةُ القديمة الأولى التي انبثقت منها كلُّ الولاداتِ اللاحقةِ، وكلّ اللحظاتِ اللاحقةِ، لحظة "قبليّة" تعالت على الزمانِ، لحظة مركزيّة يقومُ بها ومنها الاتصال والتلقّي، البداية التي تحفظُها الذاكرةُ بكلِّ أمانةٍ، ويستعيدُها التخيّلُ بمجردِ ملاقاةِ النص الحاملِ لصورةٍ جديدةٍ تُثيرُ نشاطَ الخيالِ الحاضرِ، وتستعيدُ الذاكرةَ المنقضية.

إن هذهِ اللحظة مثّلت تلك النقطة التي حاولَ كلّ الشعراء والكُتّابِ بلوغها عند المتلقي، ليُسهموا في تحقيقِ كينونته، عبر ربطهِ بلحظتهِ "القبليّةِ الكينونيّةِ" القبليّة التي تعني عند باشلار "أنطولوجيا ما تحت الكينونة، وما فوق العدم، وفي هذهِ الحالات يلين التناقض بين الكينونةِ واللا كينونة. يُحاولُ "الأقل من كينونةٍ" أن يُصبحَ كينونةً. فالأسبقيّة الكينونيّة، لا توجهها بعد مسؤوليّة الكينونة"(xxxv).

وهكذا فهو يفترضُ القبليّة الكينونيّة بوصفِها وجوداً قبليّاً أشبه بوجودِ الإمكانِ" فهو وجودٌ فوقَ العدمِ، لأنّه ليس بعدمٍ، حينما يحلُّ في لحظةٍ أخرى لاحقةٍ، فيكون مؤسساً مركزيّاً، وهو ليس كينونةً دائمةً محضةً، لأنّه يحتاجُ إلى تحقّقٍ في لحظةٍ جديدةٍ ليكون أنطولوجيا ذاتٍ من جديدٍ، ولكنّه وجودٌ قبليٌّ يمنحُ الذاتَ الحالمةَ وجودها الفعلي اللاحق، فهي لحظةٌ ضروريّةٌ واجبةٌ على حدِّ التعبير الكانطي.

وإذا كانت تلك القبليّة الكينونيّة لحظةً مؤسّسة لكينونةِ الذاتِ الجديدةِ أفيكون موتٌ وعدمٌ يلاحقانها، أو أن المسألة مفرغةٌ من العدمِ، فبناءً على التعبيرِ الوجودي الهيدغري. إن العدم يُلاحق الوجود عبر الموتِ[xxxvi]، فأين سيكون مفهوم الموت إذن؟ ثم هنا يأتي باشلار ليُعيد صياغة ذاتٍ حالمةٍ متأمّلةٍ، فالكائن الذي يظهرُ ويختفي ثم يظهرُ تبعاً لتموّجات كينونيّة في ولاداتٍ متكررةٍ يغدو كائناً لا يعرفُ مفهومَ "الموتِ العدمي" فالذاتُ الحالمةُ في التأمّلاتِ الشاردةِ مطمئنّة لا تموتُ، لأنّ الطفوليّة فينا ثابتة تُعيدُ إلينا دوماً الروح من جديدٍ وتمنحنا الولادة من جديدٍ، طفولة متحرّكة في دوامةِ الروزنامة "التقويم اليومي"[xxxvii] كما يقولُ باشلار. فوجود الولادة لا يعني أننا نضعُ إلى جنبِها الموتَ والعدميّة، فما دامت الكينونة الطفوليّة موجودةً فينا، وما دام الشعراء يثوّرونها فينا من جديدٍ بنصوصِهم، عبر التخيّل، فإنهم يُسهمون في إيجادِ كينونتِنا، ومن هنا يقولُ باشلار: "نطلب من الكُتّابِ الكبارِ أن ينقلوا إلينا تأمّلاتهم، أن يؤكدوا على حسنِ تأمّلاتِنا، وأن يسمحوا لنا أن نعيش ماضينا المعاد تخيّلهُ"[xxxviii].

ويقول أيضاً: "هناك أنواع من الحالمين تزيد تأمّلاتهم قوّةً وصلابةً، وتُعمّقُ الكائنَ الذي يتلقّاها. وهكذا يُعلّمنا الشعراءُ الكبار كيف نحلُم. إنهم يغذّوننا بالصورِ التي بفضلِها نكشفُ تأمّلاتنا المريحة، تأمّلات الراحة والاطمئنان، إنهم يُقدّمون لنا صورهم السيكوتروبية التي بواسطتها تُحرّك حُلميّة متيقّظة"[xxxix].

فباشلار يطلبُ من الكتّاب أن يحققوا له وجوده، عبر تقديمِ تأملاتِهم وتجاربهم شعراً فتُثوّر تجاربهم الماضية متخيّلةً في وعي القرّاءِ، فيعيشون تلك الكينونة القبليّة، عبر الأصلِ المشترك "الطفولة الكونية" المحمولة بالذاكرةِ، فكأنّ باشلار هنا يتوسّل برؤيةِ هيدغر في تحقيقي الوجودِ، حينما رأى أن الوجودَ يتحققُ بالاشتراكِ وبالمعيّةِ والعلاقة بالآخر[xl]، وهو لديه وجودٌ فاعلٌ ووجودٌ منفعل[xli]، وإن كنّا نرى أن أصل الفكرة موجودة لدى أستاذِ هيدغرِ هوسرل وقد ورد نصٌّ صريحٌ في كتابِ هوسرل المتأخّر عن كتابِ هيدغر "الكينونة والزمان"[xlii]، بيد أن استعارات باشلار الهيدغريّة واضحة في نظريتهِ التأويليّة، في أكثرِ من موضعِ وهي الأقرب لما قدّمه باشلار. وبناءً على ما تقدّم يُمكن أن نضع مخططاً توضيحيّاً لرؤيةِ باشلار المتقدّمة فيما سمّاه "الطفولة الكونيّة":

حلم الطفولةِ لدى الشاعرِ

↓

حلم الطفولةِ في قصيدةِ شعرٍ "كون الكلام"

↓

المتلقّي الذي يحملُ حلمَ الطفولةِ إمكاناً "القبليّة الكينونيّة"

↓

كينونة طفوليّة جديدة مثوّرة "حلم يقظةٍ طفوليٍّ جديدٍ وكينونة جديدة".

المبحث الثاني/ أكوان أمكنة البيت القبو والعليّة والأركان. "رمزيّة النظام العمودي والأفقي"

١ – كون العليّة والقبو " النظام العمودي"

إن نشاطَ المتخيّلِ لدى الحالم عبر رجوعهِ إلى ذكرياتهِ الماضية، نجده يندفعُ في تثويرِ أدقِّ التفاصيل ذلك الماضي، فيبحثُ عن الأجزاءِ، ويفتّشُ عن الشروخِ، ويَصعدُ نحو عليّةِ البيتِ، ثم ما يلبث أن ينزلَ في قبوِ الذكريات، هكذا يكونُ كلُّ شيءٍ مهمّاً، كلُّ شيءٍ هو مادةٌ للتخيّلِ، وقابلٌ للتذكّرِ وللتحققِ الأنطولوجي ولو بنوعٍ ما من ذلك التحقق، لأن أي شيءٍ يُسهم في صناعةِ كينونةِ ذلك الحالم، ويُسهمُ الحالم في إيجادِ كوناً متخيّلاً.

وباشلار يختارُ من أمكنةِ البيتِ العليّة، والقبو وكلاهما يُمثلان صيغةً لنظامِ الذكرياتِ، فلقد يمنحُ ذلك الصعود للحالمِ بين العليّةِ والقبو في تجسيدِ النظامِ العمودي، للظاهراتي مجالاً أن يُنقب في رمزيّةِ تلك "العموديّة" فيرى باشلار أن ذلك يفتحُ

النافذةَ على منظورين مختلفين لظاهراتيّة الخيالِ، فيُمكن أن تكون مقابلة بين عقلانيّةِ "عليّةِ سقفٍ" مع "عقلانيّةِ قبوٍ"، فالسقفُ مثلاً يحملُ علّة وجودهِ حينما يحمي الإنسانَ من ظروفِ المناخِ القاسيةِ، ويمنحه شعورَ الحمايةِ، بل إنه يقتربُ في رمزيتهِ من عليّة الأفكار النقيّة الساميّة، على حين يأتي كونُ القبو حاملاً نفعاً لا يُستهان به، بيد أن صورته التي تحكمُ وعي المتخيّلِ تبقى لا تخرجُ عن نطاق أنه يُمثّلُ الهويّة المظلمة للبيتِ والسكنى، فهو المشاركُ لقوى العالم السفلي حياتها، وهكذا يبقى الحالم بالقبو في انسجام مع لا عقلانيّة الأعماق، وبناءً على هذا يضعُ الحلمُ بالمكانِ المرتفعِ الإنسانَ في منطقةِ العقلانيّةِ للمشاريع الذهنيّةِ الرفيعةِ، وهكذا يظهر –كما يرى باشلار– أن هذهِ العموديّة تستقطبُ كونين يفيدان في تصويرِ الدقائق والأجزاءِ النفسيّةِ الدقيقةِ[xliii]. وهما يُقدمان أنموذجاً لنظامٍ عموديٍّ يحمل رمزيّته العميقة.

هنا يستعيرُ باشلار رؤية الروائي هنري بوسكو بوصفها شاهداً على هذهِ الدلالة، وهو حالمٌ كبيرٌ بالبيوتِ على حدِّ تعبيرِ باشلار، فيرى أن رواياته تحفلُ بالأقبيةِ المهولةِ والعلّياتِ، وهي تفتحُ للقارئ نوافذ على عوالم عميقة، ففي روايتهِ "**بائع التحف**" مثلاً يجدُ القارئ بناءً مدوّراً له قناطر تؤدّي على أربعةِ أبوابٍ، ومن الأبوابِ تمتدُّ أربعةُ ممراتٍ تنتهي إلى النقاطِ الرئيسةِ للأفقِ التحتيّ الأرضي، ثم إن البابَ ينفتحُ على الشرقِ، ونتقدّمُ في المسيرةِ التحت– الأرضيّة مسافةً طويلةً تحت بيوتِ الجوارِ، وهكذا تحفلُ الرواية بالممراتِ والأقبيةِ، وهذا النزوع –كما يرى باشلار– ما هو إلا تعبيرٌ عن وجودِ أثرٍ لأحلامِ المتاهةِ في هذهِ الصفحاتِ، وهو تعبيرٌ يتصلُ أيضاً بمتاهةِ الممرات حيث الهواء الثقيل، والأبنية المدوّرة والكنائس التي تمثّلُ مستودعات الأسرار، ومن هذا فإن القبو في هذهِ الرواية إنما يحملُ طابعاً حُلميّاً معقّداً[xliv].

فباشلار يرى أن على القارئ أن يستكشفَ القبو عبر الأحلامِ فينطلق رابطاً لهذا بالعذابِ الذي يُمارسُ في الممراتِ مثلاً، ومنها ما يتصلُ بالقصورِ المشيّدةِ تحت الأرضِ، ولربّما تاه القارئ بين هذا وذلك وصار أسيرَ حيرةٍ وضياعٍ، فلربّما لا تتضحُ تأويلات هذا التعقيد الهندسي، بيد أن التأويلَ الظاهراتي يدفعنا إلى أن نتوهّمَ أننا نشاركُ المؤلفَ عالمه، ونُشاركه في تسطيرِ روايتهِ، وهذا لا يظهرُ من القراءةِ الأولى –كما يرى باشلار– فثمّة قراءةٌ أولى وقراءةٌ ثانيةٌ يُسمّيها الخلّاقة، ثم الثالثة وهكذا إلى أن نتبنّى الوهمَ الذي مفاده أن المشكلة وحلّها ينتميان إلينا، ويصلُ باشلار إلى أن القراءةَ تكشفُ أن ثمّة مشكلةً أدبيّةً لبوسكو مفادها تقديم صورةٍ مركزيّةٍ محددةٍ تتلخصُ خطوطُها العريضةُ بروايةِ مناورات العالم السفلي، فالممراتُ ومجموعةُ الزنازين والأقبيةُ المغلّقةُ، تدفعُ إلى التفكيرِ بالأسرارِ، وهكذا تنسجُ المصائرُ على القبو الذي قدّمه بوسكو في الروايةِ، حينما تموتُ المرأةُ الجميلةُ التي وردت في الرواية في أحدِ الأقبيةِ للبيتِ الملعونِ، بيد أن هذا لا يعني أن هذا القبو مكانٌ للشرِ، إنّما هو مكانٌ طبيعيٌّ ينتسبُ إلى العالم السفلي، وبالقراءةِ المتأنية تكشف لنا تجربة البيت ذي الجذورِ الكونيّةِ، فيبدو هذا المكان أشبه بالنبتةِ الصخريّةِ التي نبتت في الصخرِ نحو برجِ السماءِ الزرقاءِ[xlv].

ويمضي باشلار في تأويلِهِ لدلالةِ هذهِ الأمكنة وصورها إلى القول قد ترمزُ هذهِ الصورة المخيفة للقبو إلى الخوفِ الإنساني الكوني الذي حمله الإنسان بوصفهِ أصداءَ أسطورةٍ كبرى لذلك الكائن البدائي الملقى في كهوفٍ منحوتةٍ في صخورِ العالمِ السفليّ، حتى يغدو الحلم والحقيقة كلّاً واحداً، ويصيرُ البيتُ والقبو وأعماقُ الأرضِ وحدةً كليّةً في العمقِ، فالبيتُ أصبحَ كائناً طبيعيّاً يرتبطُ مصيره بالجبالِ، وكذا الإنسان. هنا تتخذُ أحلامَ اليقظةِ أبعاداً لا نهائية، ولما كان القبو غالباً ما تضمّن سُلماً يصعدُ فيه الإنسان ومنه إلى العليّة يغدو ذلك السُلّمُ الطريقَ الذي ينقلُ الحالمَ من أعماقِ عالمهِ السفلي ذلك بكلِّ ما يُشيرُ إليه من لا عقلانيّة إلى مغامراتِهِ في الأعالي التي ترمزُ إلى مكانِ العقلِ، هذهِ الروحِ التي تؤمنُ بالسماءِ[xlvi]. وعنده "تحتوي العليّة على أشياءٍ لا تنسى؛ لا تُنسى لنا، بالنسبة لمن سوف تمنحهم كنوزنا. هنا يتكثّفُ الماضي والحاضر والمستقبل. فالعليّة هي ذكرى ما لا تعيه الذاكرة"[xlvii].

هكذا تغدو التقاطيع الهندسيّة من سقفٍ وقبوٍ لها دلالةٌ رمزيّةٌ وأنطولوجيا تخيّلٍ تجعلُ الذاتَ المتخيّلة في قلبِ كونٍ عموديٍّ فيُبنى من هذهِ الصورة "عموديّة الكائنِ الإنساني" عموديّة تأخذُ الكائنَ الإنساني إلى قلبِ تلك البداية الأولى، إلى ذكرى بدائية الأشياء لا ليعيش سطحيتها وسذاجتها، بل ليزداد عُمقاً فيها وفي رمزيتها حينما يرتفعُ الوعي الظاهراتي في عيشهِ حُلميّة

كونيّة لا هندسيّة ساذجة هنا ينتقلُ الكون الإنساني من لا عقلانية مظلمة وغريبة، وعالم سفلي إلى عقلانيةِ العقلِ والنورِ ومغامرات الأعالي التي تأخذُ الروحَ نحو تقاطيعِ السماءِ.

على حين يغدو العالم السفلي بأسرارهِ معبّراً عن مشكلةٍ وجوديّةٍ يعيشها الإنسان، مشكلة الخوف الكوني كما يُسمّية باشلار، من العذابات، والألم، والمجهول، والظلام، وكلّ هذه الأشياء ترمز إلى الشعورِ بالخوفِ من الفناءِ الذي يقودُ إلى العدميّةِ، واللاعقلانيّة، لذا نجده يندفعُ إلى إثباتِ العليّة التي يرى فيها رمزاً للعقلانيّة، تحقيقاً للتوازنِ، ودفعاً للعدميّةِ المرعبةِ واللاعقلانيّة، فتغدو العليّة رمزاً للعقل والإيمان بالسماءِ ومغامرات الأعالي والتسامي على الشعورِ المرعبِ بعدميّةِ الكائن، وتيه الذات، ويُختزل فيها الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، لتتحقق لحظةُ وجودِ الكائنِ في هذا العالم.

٢ – كون الأركان "النظام الأفقي"

يقول باشلار: "إن كلَّ ركنٍ في البيتِ، وكلَّ زاويةٍ في الحجرةِ، وكلَّ بوصةٍ في المكانِ المنعزلِ الذي تعوّدنا الاختباء فيه، أو الانطواء فيه على أنفسِنا هو رمزٌ للعزلةِ بالنسبةِ للخيالِ، أي أنه بذرةُ الحجرةِ والبيتِ"[(xlviii)].

فمثل القبو والعليّة يغدو الركنُ، ذلك الجزء من البيتِ أو المسكن، مقروءاً بوصفهِ كوناً آخر له دلالته، ورمزيّته التي تستحقُّ التأويل، ففيه يسترجعُ الإنسانُ عالماً من ركامِ الذكرياتِ، عالماً يتصلُ بلحظاتِ الوحدةِ والرغبةِ بالانزواءِ، فيكونُ لأركانِ المكتباتِ المتربةِ، وزوايا البيتِ القديمةِ عالمٌ فسيحٌ، فلكلِّ شيءٍ منسيٍّ أو مهجورٍ في أحدِ الأركانِ قيمةٌ ومعنى وهويّة، لأن الركن يرفضُ القصرَ والغبار يرفضُ الرخامَ، والأثاثُ العتيق المهترئ يرفضُ الفخامةَ والرفاه، فالحالمُ في ركنهِ قد ألغى العالمَ بحلمِ يقظةٍ، وصنعَ بدلاً منه كوناً مُنعزلاً عنه جديداً، هنا حطّمَ العالم واجتازَ العتبات، وقد يصلُ في حُلمِ ركنهِ إلى مجاوزةِ حتى الذاكرةِ حينما يتواصلُ مع عمقِ أعماقِ الماضي[(xlix)].

فباشلار يرى أن الركنَ هنا لم يعدْ مكاناً تتجمعُ فيه صورُ البؤسِ والأتربةِ، وهو ليس إلا فضاءً ضيّقاً للسكونِ، الركنُ هنا صارَ ملاذاً للعالمِ الجديدِ، عالم يقظةٍ يُطلُّ منه العالم على معنى وقيمة أن يكونَ للركنِ كونٌ، خارج كونِ القصرِ الواسع الترف، والفاره الفضاءات، أن يُطلَّ الحالمُ على ما لم يستطع منه أن يلغي عالمه الذي لم يعرف سواه مكان حلم وعيش هانئ، هنا الركن بدا وكأنه العالم الوحيد الذي يحملُ قيمةً، فالحالمُ ينتقلُ من ضيقٍ وانزواءٍ كما هي حال صورتهِ النمطيّةِ إلى سعةٍ وسكينةٍ وهدوءٍ، إلى تأمّلٍ ويقظةٍ إلى حياةٍ وعنفوانٍ، إلى هويةٍ ووجودٍ بدلاً من العدمِ، الذي تُمثله الصورة النمطيّة للركنِ خارج حدودِ عالم حلم اليقظة، فيكون الركنُ قلبَ كونٍ جديدٍ، بدلاً من الحافاتِ والتخومِ المهجورةِ التي كان يحتلّها قبل حلم اليقظة ذاك.

ويُمكن القول إن ثمّة نظاماً آخر للأكوانِ الإنسانيّةِ التي تؤسسُ للوجودِ، يُمكن أن نستخلصها من تأويلِ باشلار للركنِ، فإذا كانت العليّة والقبو يؤسسان لرمزيّةِ النظامِ العمودي، فإن الأركان تمثّلُ أنموذجاً للنظامِ الأفقي الذي يحيا فيه الإنسان، النظام الذي لا يُبنى على أعلى يُمثّل العقلَ والحياةَ، وبين الأدنى الذي يُمثلُ العدمَ واللاعقلانيّةَ، كحال النظام الذي ترمز إليه العليّة والقبو، هنا يمتدُّ العالمُ أفقيّاً لينفتح على سعةِ الأفقِ الممتدِّ بلانهايةٍ، هنا تتحوّلُ الآفاق الأخرى إلى شبهِ عدمٍ بإزاءِ الأركانِ، فكلّ تلك الآفاق الواسعة تغدو شبهَ عدمٍ مقابل الركنِ الذي يحملُ كوناً من الذكرةِ التي تؤسسُ الوجود ولحظة انبثاق الحياة للكائنِ الإنساني الذي يعيشُ حلمَ يقظةٍ، فكأنّ العدميّة والوجود في هذا النظام يتأسسان بناءً على الركن واللا ركن على مدى هذا النظام الأفقي الشاسع، فكلّ ركنٍ فيه هو كونٌ يحققُ الوجودَ، وكلّ مكانٍ لا يكونُ ركناً فأنه مُلغى، لأن الركن يختزل العالم والحياة ويغدو كلّ شيءٍ شبه العدمِ في وعي الحالمِ مقابل هذا المكان المنزوي، وهنا تظهرُ رمزيّةُ النظامِ الأفقي. فالركنُ يختزلُ العالم المعيش، ويغدو كوناً بذاتهِ في كلّ تفاصيلهِ العميقة في كلِّ وجوداتهِ، كوناً أعمق للوجودِ الإنساني الذاتي، ومسكناً للألفةِ والطمأنينة، يتخلّى فيه الحالم عن العوالم الفارهة، التي تتجلّى فيها الأبعادُ الهنسيّة أكبر من أي ركنٍ آخر.

المبحث الثالث/ ذاكرة صور أكوان الأشياءِ البيتيّةِ وغير البيتيّة.

١ – كون الأشياءِ البيتيّةِ "الصناديق، والخزانات، والأدراج، والعلب"

يختارُ باشلار أيضاً الانتقال إلى أكوانٍ أخرى، أكوان صنعتها الأشياء لا أماكن العيش، فمن القبو والعليّة والأركان، الأماكن الأكثر رمزيّة وعمقاً بين أنحاءِ البيتِ الذي يُمثّلُ الكون المركزي الأكبر ينتقلُ إلى أكونِ الأشياءِ التي حملها ضمناً "الصناديق والأدراج والخزانات والعُلب"، ليضيف هذهِ الأشياء رقماً جديداً إلى قائمةِ أكوانِ الألفة، فتأخذ حيزاً من فضاءِ الذاكرةِ، التي تستهدفها تأويلاته.

يقول باشلار: "من خلالِ موضوعات الصناديق والأقفال والخزائن سوف نواصلُ تواصلُنا مع المخزنِ الذي لا يُمكن سبرُ أغوارهِ لأحلام الألفة، إن الخزائن برفوفِها، والمكاتب بأدراجِها، والصناديق بقواعدها المزيّفة هي أدواتٌ حقيقيّةٌ لحياتِنا النفسيّةِ الخفيّةِ. دون هذهِ (الأشياء) ومثيلاتها فإن الحياةَ تفقدُ نماذجَ الألفةِ. وهذهِ الأشياء تمتلكُ صفة الألفة مثلنا، وعبرنا، ولأجلِنا"[i].

هكذا تختزلُ هذهِ الأكوانُ التي تبدو على صغرِها تحملُ كلَّ مظاهرَ الألفةِ والأحلام فهي لم تعد خزائن حاجاتنا المحسوسة، بل هي خزائنُ الذكرياتِ الجميلةِ، وكلّ ما حملته الذاتُ الإنسانيّةُ، هي كونٌ بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى، فهذهِ الأشياء الصغيرة بُنيت بناءً هندسيّاً خاصّاً لتأديةِ وظيفةٍ محددةٍ هي حفظُ حياتنا الحسيّة من الضياع بُنيت على وفقِ نظامٍ هندسيٍّ مقصودٍ ليغدو في الكونِ المتخيّل حفظاً لحياتنا غير الحسيّة أيضاً، حياتنا الروحيّة، فبها نتحسسُ الوجودُ، وبها نشعر بوجودِنا، ووجودِ الأشياءِ في العالم، فكلّ شيءٍ حسيٍّ جامد تكونُ له روحاً عظيمة، ومعنى، يُشعرُنا بالحياةِ وما تحمله من هناءٍ، وهكذا يصيرُ كلُّ جزءٍ صغيرٍ من البيتِ ربّما يُنظر إليه بلا قيمةٍ عند غير الحالمين كوناً مؤسساً عظيماً في ذلك البيت مثلاً يقول باشلار: "في الخزانةِ يوجدُ نقطةُ النظامِ المركزيّة التي تحمي البيت بكاملهِ من الفوضى التي لا ضابط لها. النظامُ ليس مجرّد علاقاتٍ هندسيّةٍ، بل هو أيضاً الذاكرة التي تحفظ تاريخ العائلة"[ii].

فالنظامُ الهندسي هنا نظامٌ يُنظّم الذاكرة و "يحفظُ لنا ذاكرةً منظمةً" حينما يبني لنا نظامَ ألفةٍ فريداً من نوعهِ، وباشلار يحاول أن يرّسخَ هذهِ الفكرة حينما يجعلُ للخزانة مركزيّةً في ذلك النظام، لأنها تُحققُ الانضباطَ الذي يشهدُهُ البيت، فهي مركزُ السيطرةِ على فوضى بلا ضابطٍ قد تضربُ ذلك الكون الكبير "كون البيتِ". فثمة اختزال باشلاري للكونِ الكبيرِ بالكونِ الصغيرِ، عبر إثبات اختزال الحالم للأكوانِ الصغيرةِ في مدركاتِ وعيهِ ظاهراتيّاً فتتحقق مركزيّةُ الكونِ الذي تمّ اختزاله بإزاءِ الأكوانِ الأخرى، وبهذا الاختزال يجعلُ من نظامِ هذا الأخير متحكّماً بذلك.

ومن هذا التأويل الباشلاري المتقدّم نستطيع القول: إن البيت يحملُ بين جنباتهِ تلك الألفة الكونيّة التي أشارَ إليها باشلار بفضلِ تعددِ أماكن الألفة التي يضمّها، فهو يجدُ في كونِ البيتِ الكونَ الجامع للمختلفِ والمؤتلف من الأشياءِ والأشخاصِ، فالبيتُ يؤلّفُ المركز الذي يلتقي فيه نظامُ الألفةِ العمودي، ونظامُ الألفةِ الأفقي، فيكون هو نظامُ الأنظمةِ المركزي لكلّ أماكن الألفة التي تُمثّلُ الأكوان، وقد لا يلمحُ الإنسانُ نظامَ ألفةٍ، إلا حينما يستشعرُ ذلك النظام في نظامِ كونهِ الخاص ككونِ الخزانة مثلاً، هكذا تغدو الخزاناتُ والرفوفُ والأدراجُ، أكواناً مؤسِّسةً للكونِ الكبيرِ، بل هي شرطٌ لازمٌ، فمن دونِ هذهِ الأكوانِ لربّما سيكونُ هذا النظام مُعرّضاً للفوضى وعدم الانضباطِ. ويمضي باشلار تعليقاً على رؤيةِ برغسون الذي لم يكن يرغبُ في أن تكونَ الذاكرةُ خزانةً للذكرياتِ. على حين يرى طلّابه أن الذاكرةِ خزانةٌ حقيقيّة، كما يحلو للشاعر شارل بيجوي في بيت شعري يقول فيه:

على رفوفِ الذاكرةِ وفي معابدِ الخزانةِ

فيرى باشلار في رأي الشاعر المخالف لرأي برغسون أن الخزانة لم تكن مجرّدَ قطعةٍ بسيطةٍ من الأثاثِ تُفتحُ في كلِّ يومٍ لأنها كالقلبِ الذي لا يَكشف أسراره لأيٍّ كان، ما دام مفتاحها لا يوجدُ في بابها دائماً، فقد تكون ملأى بالوعودِ وبأشياءٍ مشتهاة، ولهذا تتجاوزُ في كونِها أكثرَ من مجرّدِ تأريخٍ للعائلةِ. هنا تتحولُ الخزاناتُ إلى معابد، لها قداستُها وطقوسُها الروحيّة التي تمدُّ الإنسانَ بها، وكما يقول رامبو في مقطعٍ من قصيدةٍ ينقلها باشلار[iii]: –

الخزانة ليس لها مفاتيح! .. ليس للخزانةِ الكبيرةِ مفاتيح
كثيراً ما كُنّا نطالعُ بابها البنيّ الأسود
بلا مفاتيح! .. كان ذلك غريباً! مرات كثيرة حلمنا
بالخفايا التي تكمن بين أجنحتها الخشبيّة
واعتقدنا أننا سمعنا في عمقِ القفلِ الفاغر
صوتاً بعيداً، وهمهمةً مبهمةً مرحةً.

فهي كما يرى باشلار "تجمعُ الكون كلّه حول وفي شيءٍ. نراه يفتحُ الصناديقَ أو يكدّسُ ثروات كونيّة في علبةِ مجوهراتٍ رقيقةٍ، إذا كان هناك مجوهرات وأحجار كريمة في العُلبةِ فإن الشاعرَ يندفعُ إلى خلقِ رومانسيّة، لأن هذهِ المجوهرات هي الماضي، الماضي البعيد، ماضي يخترقُ الأجيال الجواهر سوف تتحدثُ عن الحبِّ، بالطبعِ. ولكنّها سوف تتحدثُ أيضاً عن القوّةِ والقدر، وكلّ هذا أعظم بكثيرٍ من القفلِ والمفتاح"[liii].

فثمة روحاً تحمله تلك الأشياء التي تبدو صامتة، وثمّة حياةٌ حافلةٌ بالأسرارِ والخفايا، والحبِّ، تأخذُ الحالمَ إلى تلمّسها في عالم ذكرياتهِ المتخيّل، الذي تخلقه لحظاتِ الماضي، ويُعاد خلقه في لحظةِ حلمٍ أورثه بيتٌ شعريٌّ أو مجموعةُ أبياتٍ قالها شاعر مرّةً بتجربةٍ فصورّها، ومن وجودِ هذا الأصل المشترك بين التجارب الإنسانيّة يُمكن أن تتوحدَ التجاربُ الإنسانيّةُ في تجربةٍ كونيّةٍ بين كلِّ الحالمين، ويغدو الفهمُ مشتركاً، وهو الفهمُ الذي أفاده باشلار من دلتاي وغيره من فلاسفةِ التأويلِ كما سبق وأشرنا.

٢ – كون الأمكنةِ غير البيتيّةِ:

أ – العشُّ ورمزيّته

لم يتوقفْ الرصدُ الظاهراتي الباشلاري عند بيتِ الألفةِ الأوّل، أو الكون الذي انبثقت فيه الذاتُ الإنسانيّة وأناها الحالمة، بين ذاكرةٍ قديمةٍ تُمثّلُ الذكرى، وبين "الأنا" الحاضرة المتخيّلة، ولا عند الأركان والأشياء ونظام ألفتها، الذي شهدناه في كونِ البيتِ، إن الرصد الظاهراتي الباشلاري مضى يفتشُ عن أمكنةٍ أخرى بعيداً عن الأكوانِ الإنسانيةِ "البيت، الأركان العليّة والقبو، الصناديق والأدراج وغيرها" مضى يفتشُ عن معادلاتٍ موضوعيّةٍ لكلِّ ما يخلقُ ألفة حتى ولو كان ذلك كوناً لا إنسانيّاً، ولكنّه يحملُ بين جنباتِه ألفةَ بيتٍ وسعادة وسكينة.

ومن هذهِ الرؤية انطلق باشلار في رصدِ هذهِ الأمكنة اللاإنسانية الأليفة فيختار الأعشاش، بيد أنه يُذكّرُ بسلوكهِ لمنهجٍ ظاهراتيّة فيقول باشلار: "ليست وظيفة الظاهراتية وصفَ الأعشاش كما هي في الطبيعةِ، فتلك مهمّة عالم الطيور. إن بداية الظاهراتيّة الفلسفيّة للأعشاشِ تكونُ في قدرتِنا على توضيحِ الاهتمام الذي تُطالعُ بهِ ألبوماً يحتوي صورَ أعشاشٍ، أو بشكلٍ أكثر وضوحاً، قدرتنا على استعادةِ الدهشةِ الساذجةِ التي كُنّا نشعرُ بها حين نجد عشّاً. إن هذا يعودُ إلى طفولتِنا، أو إلى التي كان يجب أن تكونَ لنا. فلم يمنح الكثيرون منّا، بواسطة الحياة، المدى الكامل لما تتضمّنه الحياة من ملابساتٍ كونيّةٍ"[liv].

هنا يرجعُ باشلار ليبني تصوّره في رصدِ العشِّ ظاهراتياً على لحظةِ الانبثاقِ الأولى التي ولّدت دهشةً وشعوراً ساذجاً أوّليّاً، وهكذا فقاعدة الرصد تنطلقُ من توضيحِ الاهتمامِ في حالةِ توجّه الوعي "للذاتِ الراصدة" نحو صورةِ عشٍّ ما "لحظة التخيّل" وعبر ربطها باللحظةِ الأولى، الانبثاق الأوّلي لأوّل صورةٍ في الوعي "الذاكرة" الطفوليّة يتحققُ الوعي الظاهراتي فباشلار يبني إدراكَ صورةِ العشّ على مركزيّةِ اللحظةِ الأولى التي تحملها الذاكرة، فلولا هذهِ اللحظة لما وجِد اهتمام بهذهِ الصور، بل إنه يتجاوز إلى اللحظةِ التي لم يُتح للإنسانِ عيشها في طفولتهِ كرؤيتهِ للعشِّ مثلاً، ولكنّه تحسسَ عيشَها صورةً. بيد أن ما يُخول باشلار لوصفِ الأعشاشِ بوصفها مكانَ ألفةٍ هي القاعدةُ نفسها في ألفةِ البيت الأوّلي الذي حمل لحظة مؤسسة للانبثاقِ المؤسسِ لكينونةِ الإنسانِ، فالشعورُ بألفةِ العشِّ قائمٌ على الشعورِ بألفةِ البيتِ، وبقياسِ المكانِ الإنساني الواقعي على المكانِ اللاإنساني الحلُمي يُمنحُ الأخير كونيّة يألفها الإنسانُ الحالم.

وهكذا يرى باشلار في أن الحالمَ بالبيت– العشّ لا يكون حديث عهدٍ بهِ، لأنه المأوى الطبيعي والسكنى، ويبقى حلمُ العودةِ إليهِ ماثلاً كعودةِ العصافير إلى أعشاشِها، وعندها تأخذُ العودةُ الإنسانيّةُ مكانها في إيقاعِ الحياةِ، إيقاع بالغ القدمِ، وعبر هذا الحلم يُلغى كلُّ غيابٍ. فيغدو ترابط صورتي العشِّ والبيتِ من مكوناتِ الولاءِ المخلصِ(lv). فالعودةُ هي جزءٌ مركزي يُعيدُ إلى الإنسانِ كينونتهِ الإنسانيّة الأولى، فيغدو العشُّ مُعادلاً موضوعيّاً للبيتِ القديم الذي حمله إيقاع الحياة الموغل في القدمِ، ومن شعورِ الحالمِ بهذا الجزء يُلغى الغيابُ، الغياب الذي يستغرقُ في الماضي أيّما استغراق، الغيابُ الذي يعني غياب الشيء غياب الكينونة، الغياب إلى المجهولِ، ولكن الحلم على الطريقة الباشلارية يُعيد إلى الغائبِ وجودَهُ، إنما هو "أنطولوجيا حضور" عبر الاستعادةِ من "الذاكرةِ المتخيّلةِ"، ومن المؤكدِ فالصورةُ الشعريّة التي يقرأها الشخصُ تُسهمُ مساهمةً كبيرةً في إيجادِ هذهِ الكينونة، بل وتجديدها، لذا نجد باشلار يقولُ سنتأثّر بعمقٍ حين نقرأ مقطوعة من قصيدةِ جان كوبير "العشّ الدافئ":

العشُّ الدافِئ الهادئ

الذي يُغنّي فيه العصفورُ

....

يستدعي الأغنيات، السحر

العتبة النقيّة لبيتي العتيق.

ولا يكتفي باشلار بهذا، بل يندفعُ إلى ربطِ التناقضِ بين إلغاءِ التضادِ بين هشاشةِ العشِّ في الواقعِ، وشعور الأمانِ والطمأنينة والقوّة التي يُقدّمها، فهذا التضاد، ربّما يُسيطرُ على حلُم يقظةٍ من أحلامِ الإنسانِ، وهنا يرى باشلار أننا حينما نحلُم نكونُ، ظاهراتيين من دونِ أن نعلمَ، إذ نعيشُ غريزةَ العصفورِ على نحوِ ساذجٍ، فثمّة ثقةٌ بالعالمِ من ذلك العشّ، وعند رؤيتِنا له فإننا نضعُ أنفسنا في المنبعِ الذي تنبثقُ منه الثقةُ بالعالمِ، وهي بدايةٌ للثقةِ الكونيّةِ، فالعصفورُ لو لم يكن يملكُ غريزةَ الثقةِ بهذا العالم لما بنى عشّاً، وهكذا يغدو بيتُنا الواقعي في حلُم يقظةٍ عشّاً في العالمِ، الحياة هي هَناء الوجودِ، والوجود يبدأ بهَناءِ الوجودِ، ويُمكن القول بلغةٍ ميتافيزيقيّةٍ، إن العالمَ هو عشُ الإنسانيّةِ، وهكذا فعشُ الإنسانيّةِ لا ينتهي مثل عالمه لا ينقضي، ودائماً يُساعدنا الخيالُ على الاستمرارِ، فالشاعرُ لا يستطيعُ أن يتخلّى عن صورةٍ غنيّةٍ كهذهِ(lvi).

هنا يقلبُ باشلار الواقعي إلى خيالي أو يجعلُ من الخيالِ واقعيّاً، فصورةُ البيتِ الواقعي الذي يمدّنا بالأمانِ والطمأنينة، يستعيرُ رمزيّة البريّةِ، فمن العشِّ يأخذُ مادته، ويرسمُ غريزته البريّة، ولربّما وجد لها لحظةَ انبثاقٍ في لا وعيه، حينما يعيشُ غريزةَ العصفورِ بكلِّ تفاصيلها، فينقلب العشُّ الضعيفُ إلى ملجأ قويٍّ، وينقلبُ الخوفُ من الانهيارِ إلى ثباتٍ وأمانٍ، فيحفل عالمُ حلُمِ اليقظةِ بالمركزيّةِ، ويصيرُ المثيلُ أصلاً يُقاسُ إليه الأصلُ، فالعشُّ أصلٌ، والبيتُ فرعٌ عنه في قاعدةِ باشلار الظاهراتيّة المقلوبة، فهو يرى أن ثمّة شعوراً بريّاً يحمله الإنسانُ يُمثّلُ لحظةَ انبثاقٍ أولى تؤسسُ الشعورَ الحلُمي الأليف، لذا تحدثُ هذهِ الزحزحةُ من مركزيّةِ البيتِ إلى مركزيّةِ العشِّ، بيد أنها في النهاية زحزحةٌ حلُميّةٌ تمنحُ الحالمَ لحظةَ انبثاقٍ ظاهراتيّة أوّليّة حتى يتمكّنَ من عيشِ لحظةِ شعورٍ بريّةٍ، كما تشعرُ العصافير الهانئة في أعشاشِها. وهذا هو المعادلُ من شعورِ ألفةِ البيتِ.

ب – القوقعة ورمزيّتها.

إن هذا التوجّه في الرصدِ الظاهراتي الباشلاري لم يقتصر على أمكنةِ الألفةِ التي ترتبطُ برباطِ التماثلِ مع بيتِ ألفتنا الأوّلي كما تقدّم في مثالِ العشِّ، إذ يندفعُ باشلار في الرصدِ نحو بحثِ رمزيّةِ أمكنةٍ صغيرةٍ قد لا تقعُ عليها عينُ الراصدِ غير الظاهراتي "فالقوقعةُ" التي هي بيتُ حيوانٍ صغيرٍ لا تكادُ تلمحهُ العينُ، يُمكنُ أن تحلَّ عند الراصد الظاهراتي، إلى كون ألفةٍ، ولكن لا بوصفهِ مكاناً واقعيّاً للألفة، وإنما معادلاً موضوعيّاً لانطواءِ الذاتِ على نفسِها، يقولُ باشلار: "ينقلنا الإحساس بالهناءِ إلى بدائيّةِ المأوى. من ناحيةٍ جسديّةٍ فإن الكائن الذي يمتلكُ المأوى يتكوّرُ، ويتستّر، ويختفي، ويرقدُ يتلذذُ، وهو غائبٌ عن

الأنظارِ... بالنسبةِ للأعشاش، والقواقع بشكلٍ أخصّ، فسوف نجد مجموعةً كاملةً من الصورِ أحاولُ تصنيفها كصورٍ أصليّةٍ، وهي صورٌ تبعثُ البدائيّةَ التي في داخلِنا... إن الإنسان يجبُ أن "ينسحبَ إلى ركنهِ" وإن ذلك يمنحه متعةً جسديّةً"(lvii).

هنا يربطُ باشلار بين الهناءِ والألفةِ التي يمنحها المأوى، وبين غريزةِ التسترِ والاختفاءِ والانطواءِ، والتكوّرِ، التي هي غريزةٌ تشتركُ بها عددٌ من المخلوقاتِ الحيّةِ، ومنها الإنسان والقواقع وغيرها، فيصوغُ من هذا الاشتراك معادلةً تأويليّةً مفادُها: أن ثمّة نزوعاً غريزيّاً نحو التكوّرِ والانطواءِ على الذاتِ بعيداً عن العالمِ، وهذا ما يمنحه المأوى الهانئ، والطمأنينة، فالمأوى يتحرّكُ فينا شعوراً غريزيّاً بدائيّاً وأصيلاً بلذةِ العُزلةِ والانطواءِ كما يتحركُ في ذلك المخلوقِ الصغيرِ الذي تُمثّلُ له قوقعته الكونَ الآمنَ الحامي من الظروفِ الخارجيّةِ.

فالمأوى المنطوي في أصلهِ هو ذاتٌ منطويةٌ، وانطواء المأوى هو انطواءُ الذاتِ، وانطواءُ الذاتِ هو انطواءُ المأوى، وهذا ما يوجد الهَناء، والهَناء من ذلك التكوّرِ والاختفاءِ يشعرُنا بلذةٍ جسديّةٍ، لأن الذاتَ تخلقُ عالمها الذي لا يُشاركُها فيه أحدُ، عالماً ينأى عن كلِّ الصخبِ الذي يحفلُ بهِ العالمُ، عالم كينونةِ الذاتِ المنطويةِ، ومتعتها الجسديّة جراء ذلك التكوّر. فباشلار يستعيرُ شعورَ ذلك الحيوان الصغير ويُسبغُها على الإنسانِ بناءً على أن ثمّة شعوراً غريزيّاً بدائيّاً مماثلاً لدى الإنسان، ومن هنا يُمكنُ للبيتِ أن يتحوّلَ إلى أشبهِ بالقوقعةِ عند الحالم ليستعيد لحظتهِ الأولى في الشعورِ الغريزي الحيواني، وينزوي في عالمهِ الخاص بعيداً عن أعين الناس كما ينزوي الحلزونُ الصغيرُ، وبهذا يؤولُ باشلار صورَ القواقع التي يستعيرها الشعراء في أشعارِهم بناءً على قاعدةٍ ظاهراتيةٍ باستعارةِ انبثاق اللحظةِ الغريزيّةِ الأولى التي تشتركُ فيها بعضُ الكائنات الحيّة تعبيراً عن شعورِ ألفةٍ. فضلاً عن "قاعدِ الاستبطان"، و"العقل الموضوعي" التي قدّمهما دلتاي في نظريتهِ التأويليّة، فهو قد بدا تأويليّاً دلتائيّاً بامتياز، وإن لم يُجاري دلتاي في التزامِ فكرةِ المماثلةِ الموضوعيّة في تأويلِ الأكوان التي صارت فضاءات للتجارب الإنسانيّة.

خاتمة

١ – يرى باشلار أن البيتُ الأولي الذي ألفه الإنسان يتمتّعُ بالمركزيّةِ، والسيادة، وهو نواة أولى لمشاعر الألفة في الأمكنة الأخرى، وهو شعورٌ من بناءِ نشاطِ الخيالِ، لأن صورة الحسيّة لذلك الكون قد غادرت، وحلّت في رمزٍ جديدٍ يُثورُ الخيال مرّةً أخرى فعيش تجربة البيتِ الأول بكلِّ وأقعيتهِ، وهو جزءٌ من أحلامِ اليقظةِ، والبيتُ الجديدُ يغدو محطَّ قوافل الذكريات القديمة، فهو يفتحُ نافذةً على تاريخٍ سحيقٍ يربطُ فيه الخيال بالذاكرةِ، وكلاهما يُعمّق الآخر، فالذات تنتقلُ إلى ذاكرة المتخيّل الطفولي الذاكرة الثابتة، فتعيش تثبيتات سعادةٍ مرّتْ قبل زمنٍ طويلٍ في مكانٍ محددٍ، ومن هنا يغدو العمق الشعري في نصٍّ شعريٍّ أكثر من الذكريات.

٢ – يفصل باشلار في مفهومِ "الذاكرة" بين لحظتين "لحظة انبثاق صورة الأصل المحمولة من الذاكرةِ الطفوليّة البعيدة، وكون الألفة الأولي، ولحظة الصورة المتخيّلة الحاضرة القائمة عليها، وتسعى لمماثلتها لتعيش لحظتها المنقضية بصورة حلمِ يقظةٍ حاضرٍ، ويتحققُ التواصل بين عوالم الزمن، وبهذا يتحقق اختزالٌ للمسافةِ الزمنيةِ الفاصلة بين ما كان وما يكون، فتحققُ فيها الذات أنطولوجيتها. وبهذا يظهر أنه أمين للأصلِ الظاهراتي الهوسرلي الذي أستند إليه، ولكنّه ممزوجٌ بحمولاتٍ دلتائيّة في مفهومِ الزمان.

٣ – يرى باشلار أن بالتوجه الظاهراتي لا يبحث الإنسان عن أبعاد هندسيّة للأمكنة يُفتش وإنما يندفع نحو البداية أو اللحظة الأولى للإدراكِ "للوعي" لحظة انبثاق الألفة والهَناء تلك البذرة الجوهريّة لهذا الكون، يبحثُ القوقعة الأصليّة الذاتيّة في كلِّ بيتٍ. فلا قيمة للمكانِ بوصفهِ بعداً هندسيّاً، ولكن في كونه مكان ولادةِ الهَناء والطمأنينة، والقيمة الوجوديّة بكلِّ معانيها. فيغدو المكان الضئيل كوناً مفتوحاً وعالماً لا متناهياً، ويصير بؤسه المادي أجمل عوالم الألفة المتخيّلة، وتتجلّى مركزيته في تجربةِ الحالم.

٤ – يرى باشلار أن تأثير كون الألفة الأولي يُسهمُ في إثبات أنا الذات الحالمة، فباللا أنا "البيت" تُثبت الأنا، أوّلاً وبهِ يُكتشفُ العالم البعيد، لذا تكونُ كلُّ الأمكنةِ المأهولةِ التي تحملُ ضمناً جوهرَ فكرةِ البيتِ وسكينتهِ، متحوّلةً إلى كونٍ يجدُ فيه الإنسانُ كلَّ الهَناءِ والطمأنينةِ، كما في العشِّ والقوقعة، وغيرها.

٥ – إن لحظة الوعي الأولى، لحظة ولادة الكائن عند باشلار، هي ركن أساسيٌّ في نظريّةِ التأويلِ التي تستهدفُ "الذاكرة المتخيّلة" فالكونِ الطفولي والاعتراف بديمومةِ نواةِ طفولةٍ في الروحِ الإنسانيّةِ. دفعه إلى القولِ بأنّ تأويلها في نصوصِ الشعراءِ ظاهراتيّاً ينطلقُ من أرضيّةٍ مشتركةٍ بين منتجِ النصِّ الشعريّ، وبين متلقّي نصّهِ الشعري فكلاهما يحملُ تلك النواة الدائمة، وكلاهما مرّ بتجربةٍ سابقةٍ أولى للشعورِ بالطفولةِ، وبقيت حاضرةً عبر ذاكرةٍ ماضيةٍ، بيد أنها متخيّلة في الحاضرِ. فتشابه التجربتين ولو في حيّز الإمكان يُحققُ الفهمَ وتمثّلَ التجربة حاضرةً، ويوجد إمكان استعادة شعورَ عيشها في عالمٍ مُتخيّلٍ بناءً على ما حملته الذاكرة، وفي رؤيتهِ هذه كأنّه يستعينُ بنظريةِ فيلسوفِ التأويلِ الألماني دلتاي التي أقامها على قاعدةِ الاستبطانِ المشتركةِ، أو ما اصطلح عليه بـ"العقل الموضوعي".

٦ – إن فكرة الاستعادة لدى باشلار بين ذاكرةٍ ماضيةٍ، ومتخيّلٍ حاضرٍ تجعلُ "ديمومة الشعور" قائمةً وهذا يوصلُه إلى الاعترافِ بما سمّاه "الطفولة الكونيّة" فالحالمُ يتمنّاها في شيخوختِهِ التي تحلُّ بلحظاتِها الهادم لكلِّ رغبةٍ في العيشِ والحياةِ، فهي لحظةُ رعبٍ للذاتِ الإنسانيّةِ، لأنها لحظةٌ تتحققُ فيها النهايةُ والموتُ على حين تحققُ لحظةُ الطفولةِ له الحياةَ والولادة.

٧ – تحمل التقاطيع الهندسيّة للأمكنة البيتية وغير البيتية في تأويلِ باشلار أنظمة مختلفة عموديّة وأفقية لها دلالة رمزيّة وأنطولوجي ترسم صورة "عموديّة الكائنِ الإنساني" فترتفعُ بالوعي الظاهراتي من عيشهِ حُلميّة كونيّة لا هندسيّة ساذجة ولا عقلانيّة مظلمة وغريبة، وعالم سفليّ إلى عقلانيّةِ العقلِ والنورِ والإيمان ومغامرات الأعالي نحو السماءِ. لذا اندفع إلى إثباتِ العليّة التي يرى فيها رمز العقلانيّة، تحقيقاً للتوازنِ، ودفعاً للشعورِ المرعبِ بعدميّةِ الكائن، وتيه الذات، فيغدو الركن يحمل نظاماً أفقياً وكوناً محققاً للوجود، بيد أنه يرى في البيت مركزاً تلتقي فيه أنظمة الألفةِ العمودي والأفقي، فيكون هو النظامُ المركزيّ للأنظمةِ، ويُختزل باشلار في هذا الفهم الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، لتتحقق لحظةُ وجودِ الكائنِ في هذا العالم.

٨ – يؤولُ باشلار العشَّ بوصفهِ مُعادلاً موضوعيّاً للبيتِ القديم الذي حمله إيقاع الحياة الموغل في القدمِ فثمّة شعوراً بريّاً يحمله الإنسانُ يُمثّلُ لحظةَ انبثاقٍ أولى تؤسسُ الشعورَ الحلُمي الأليف، فهو في تأويلهِ يُحدث زحزحة حلُميّةٌ متخيّلة من مركزيّةِ البيتِ إلى مركزيّةِ العشِّ، فيُمنح الحالمُ لحظةَ انبثاقٍ ظاهراتيّة أوّليّة فيتمكّنَ من عيشِ لحظةِ شعورٍ بريّةٍ، كما تشعرُ الطيور الهانئة في أعشاشِها. وكذلك في القوقعة فثمّة نزوع غريزيّ نحو التكوّرِ والانطواءِ على الذاتِ بعيداً عن العالمِ، ويتحرّكُ المأوى فينا شعوراً غريزيّاً بدائيّاً وأصيلاً بلذةِ العُزلةِ والانطواءِ كحال المخلوقِ الصغيرِ المختبئ في قوقعته وكونهِ الآمن الحامي من الظروفِ الخارجيّةِ.

الهوامش.

[i] موسوعة لالاند الفلسفية، مج ٧٨٣/٢ .

[ii] انظر، المحاورات الأفلاطونية الكاملة، ٣/ ١٩٧، ٢٤٧، انظر، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ٥٩، ٦٣ .

[iii] انظر، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ٤٧.

[iv] موسوعة لالاند الفلسفية، مج ٢/ ٧٨٣.

[v] انظر، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ٥١، ٥٢، ٥٣.

[vi] انظر، الذاكرة في الفلسفة والأدب، ٢٩.

[vii] انظر، م. ن، ٢٩.

[viii] انظر، فكرة الفينومينولوجيا، ١٤٩،

see, *Dictionary of Philosophy*, A. R. Lacey. 3[nd], 1996, p: 252

[ix] لأن الوعي عند هوسرل هو دائماً وعي بشيءٍ ما. انظر، مدخل إلى الفلسفة الظاهراتية، ٤٠ .

[x] جماليات المكان، ٣٦.

[xi] م. ن، ٣٥.

[xii] م. ن، ٣٦.

[xiii] الظاهرة phenomena كلمة يونانية الأصل تعني يظهر، أي موضوع للخبر يُدرك بوساطة الحواس، وتختلفُ الظاهرةُ عند كانط من حيث المبدأ عن الشيء في ذاته "النومينون"، الذي يبقى وراء حدود الخبر، ولا يُمكن للمتأمّل أن يبلغه، وقد فرّق كانط بهذا المفهوم بين الجوهر والمظهر عاداً الأوّل غير ممكن المعرفة. انظر، الموسوعة الفلسفية، ٢٨٨ .

[xiv] see, *The Blackwell Dictionary of western philosophy*, p, 516, see, *Dictionary of philosophy*, A. R. Lacey. 3 nd, 1996, p: 252

[xv] انظر، جماليات المكان، ٣٦، ٣٧، ٣٨ .

[xvi] انظر، الذاكرة في الفلسفة والأدب، ٣٢، ٣٣.

[xvii] انظر، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ٥٥.

[xviii] المسافة الزمنيّة تعني الفارق بين زمنِ حدوثِ التجربةِ أو الحدث أو إنتاج نصّ، وزمنِ حدث القراءة والتأويل.

[xix] تأويليّة دلتاي تنظر للزمان الحي ليس بوصفهِ تتابعاً للوحدات الصغيرة الساعات، وإنّما ما يوجد بالنسبةِ إلينا عن طريقِ وحدة الوعي بالزمانِ الذي نعايشه، ونختبره بوصفهِ تعاقباً فيصبح فيه الحاضر ماضيّاً باستمرارٍ ويصير فيه المستقبل حاضراً، فالحاضرُ عنده امتلاء لحظةٍ من الزمانِ بالواقعِ, والواقع عند دلتاي هو الحاضر المحض الذي نعيشُ فيه على حين يكونُ الماضي متذكراً والمستقبل مستدلاً، وليس هناك شيء دائم إلّا القول بالحاضرِ. انظر، دلتاي وفلسفة الحياة، ٦١.

[xx] التصوّر الأوغسطيني يُلغي التقسيمَ الثلاثي للزمنِ فلا يوجد سوى حاضر ثلاثي الأوجه حاضر الماضي، وحاضر الحاضر، وحاضر المستقبل، لأن الحضور متحقق على الدوام أمّا الماضي فهو المتذكر في الحاضر, وأما الحاضر فهو حاضر آنياً وفعليّاً, وأما المستقبل فهو حاضر بالتخطيط والاستشراف في الحاضر نفسه. انظر, الزمان والسرد ،الحبكة والسرد التاريخي، ١/ ١٠٧، ١٠٨، انظر، الذاكرة، التاريخ، النسيان، ١٥٦ فما بعدها.

[xxi] انظر، جماليات المكان، ٣٩، ٤٠.

[xxii] م. ن، ٤٣، ٤٤.

[xxiii] م. ن، ٤٥.

[xxiv] انظر، الباب الأول من الكتاب "نظام المماثلة".

[xxv] انظر، جماليات المكان، ٤٤.

[xxvi] شاعرية أحلام اليقظة علم شاعرية التأملات الشاردة، ٨٧.

[xxvii] انظر، شاعرية أحلام اليقظة علم شاعرية التأملات الشاردة، ٨٧، ٨٨.

[xxviii] انظر، القراءات المتصارعة التنوّع والمصداقيّة في التأويلِ، ٧٧، وانظر، نقدنا لهذهِ الرؤية عند دلتاي، وإثباتنا للمغالطة التي حملتها هذه القاعدة، وأنها تُقدّم نتيجة بخلافِ النتيجة التي أرادها. في "العقل التأويلي الغربي مقاربات في أنظمتهِ المعرفيةِ ومساراتهِ"، الباب الأول.

[xxix] موسوعة لالاند الفلسفية، مج ٢/ ٦٢٠.

[xxx] انظر، شاعرية أحلام اليقظة علم شاعرية التأملات الشاردة، ٩٢.

[xxxi] م. ن، ٨٩.

[xxxii] م. ن، ١٠٩.

[xxxiii] م. ن، ٩٢.

[xxxiv] انظر، م. ن، ٩٤، ٩٥.

[xxxv] م. ن، ٩٧.

[xxxvi] لا ينكر هيدغر اندفاعه إلى حقيقةِ فناءِ الموجود الإنساني وانقطاع سلسلةِ مسيرته، وهذا ما جعله ينساق إلى الاعتقادِ بأن الوجود إنما هو وجودٌ من أجلِ الموتِ، انظر، نداء الحقيقة، ٨٧، ٨٨، وكما يقول مطاع صفدي إن ثمّة رغبةً هيدغريّةً عارمةً في الاندفاع نحو المجهولِ أو تأسيس الانبناء للمجهول، بتنميةِ هذا حواراً شموليّاً دائماً وعميقاً ومستمراً بين الوعي والوجود والحفر في أصولِ العلاقةِ مع العالمِ. انظر، استراتيجية التسميّة في نظامِ الأنظمة المعرفية، ٢٢٤ .

[xxxvii] انظر، شاعرية أحلام اليقظة علم شاعرية التأملات الشاردة، ٩٧، ٩٨، ١٠٢.

[xxxviii] م. ن، ١٠٦.

[xxxix] م. ن، ١٣٨.

[xl] انظر, نداء الحقيقة، ٧٠، ٧٤.

[xli] يقول هيدغر" الوجود الواقعي للعالمِ هو دائماً بالنسبةِ لنا وجودٌ فاعلٌ ووجودٌ ينفعلٌ " مبدأ العلة، ٦٦.

[xlii] كتاب هيدغر **الكينونة والزمان** صدر في سنةِ ١٩٢٧، على حين ورد نصُّ هوسرل في كتابه أزمة العلوم الأوربية، وهو كتاب صدر قُبيل وفاة هوسرل في الثلاثينات، يقول هوسرل:"إن حياة الوعي المنسابة والتغير بأشكالٍ متعددٍ لا تجري في الذواتِ المختلفةِ بكيفيّةٍ فرديّةٍ، بل كونها حياةً للوعي في اجتماعٍ متبادلٍ وفي اشتراكٍ بين الذوات. إننا نوجد جميعاً، سواء مباشرة أو بكيفيّةٍ غير مباشرةٍ، في اجتماعٍ فعليٍّ أو ممكن، وفي هذهِ الحياة المشتركة كونها حياةً للوعي يتخذُّ وجود العالم بالنسبة لنا جميعاً معنى عاماً مشتركاً بصفته الـ(عالم) عالم الجميع وبالنسبة للجميع" انظر, أزمة العلوم الأوربية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية، ٤٥٥.

[xliii] انظر، جماليات المكان، ٤٦.

[xliv] انظر، م. ن، ٤٨.

[xlv] انظر، م. ن، ٤٩.

[xlvi] انظر، م. ن، ٥٠، ٥١ .

[xlvii] جماليات المكان، ٩٦.

[xlviii] م. ن، ١٣٤.

[xlix] انظر، م. ن، ١٣٨، ١٣٩.

[l] م. ن، ٩١.

[li] م. ن، ٩١.

[lii] م. ن، ٩٢.

[liii] م. ن، ٩٦.

[liv] م. ن، ١٠٢.

[lv] انظر، م. ن، ١٠٦، ١٠٧.

[lvi] انظر، م. ن، ١٠٩، ١١٠.

[lvii] م. ن، ١٠١.

المصادر والمراجع

(١) **أزمة العلوم الأوربية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية مدخل إلى الفلسفة الفينومينولوجية**، أدموند هوسرل، ترجمة، إسماعيل المصدق، مراجعة، د. جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمةِ، بيروت لبنان ط(١) ٢٠٠٨ م.

(٢) **استراتيجية التسميّة في نظامِ الأنظمة المعرفية**، د. مطاع صفدي، مركز الإنماء القومي، ط(١), ١٩٨٦م.

(٣) **أفلاطون المحاورات الكاملة**، نقلها إلى العربيّة، شوقي داود تمراز، الأهليّة للنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٤م.

(٤) **جماليات المكان**، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت،١٩٨٤م.

(٥) **دلتاي وفلسفة الحياة**، د. محمود سيد أحمد، دار التنوير، ط ٢، ٢٠٠٥م.

(٦) **الذاكرة في الفلسفةِ والأدبِ**، ميري ورنك، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٧م.

(٧) **الذاكرة، التاريخ، النسيان**، بول ريكور، جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٩م.

(٨) **الزمان والسرد، الحبكة والسرد التاريخي**، بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي وفلاح رحيم، راجعه عن الفرنسية، د.جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٦م.

(٩) **شاعريّة أحلام اليقظة علم شاعريّة التأملات الشاردة**، غاستون باشلار، ترجمة جورج سعد، المؤسسة الجامعيّة للدراساتِ والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩١م.

(١٠) **القراءات المتصارعة التنوع والمصداقية في التأويل**، بول .آرمسترونغ، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة, ط١، بيروت لبنان، ٢٠٠٩م.

(١١) **مبدأ العلة**، مارتن هيدغر، ترجمة د. نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢،٢٠٠١م.

(١٢) **مدخل إلى الفلسفة الظاهراتية**، د. أنطوان خوري، دار التنوير، ط١، بيروت، ٢٠٠٨م.

(١٣) **معجم الفلاسفة (الفلاسفة – المناطقة – المتكلمون – اللاهوتيّون – المتصوفون)**، إعداد, جورج طرابيشي ، دار الطليعة، ط٣، بيروت لبنان, ٢٠٠٦م.

(١٤) **موسوعة لالاند الفلسفيّة، معجم مصطلحات الفلسفة النقديّة والتقنيّة**، ترجمة، خليل أحمد خليل، إشراف أحمد عويدات، عويدات للطباعة، بيروت، ٢٠٠٨م.

(١٥) **نداء الحقيقة**، مع ثلاثة نصوص عن الحقيقة لهيدجر **(ماهية الحقيقة. نظرية أفلاطون عن الحقيقة. أليثا: هيراقليطس، الشذرة السادسة عشرة)** ترجمة وتقديم ودراسة، د. عبد الغفار مكاوي، دار شرقيات للنشر والتوزيع، ط (١)، القاهرة، ٢٠٠٢م.

المصادر الإنجليزيّة

(1) The Blackwell Dictionary of western philosophy ,Nicholas Bunnin And Jiyuan Yu,Blackwell publishing ,2004.

(2) Dictionary of philosophy, A. R. Lacey. 3^{nd}, 1996.